الباب الأول

فى المدرسة السوفييتية

كان يوم ١٨ يونية ١٩٣٥م هو اليوم الاخير لنا فى السويد ، خرجنا فى مسائه نتجول فى شوارع « ستوكهولم » بصحبة بعض أصدقاء والدتى ، وهم ألمانيون طردوا من ألمانيا كما طردنا . صحبونا الى الباخرة التى سوف تقلنا الى الميناء الفنلندى « توركو » .

حانت لحظة وداعهم ايانا ، فتمنوا لنا رحلة موفقة الى موسكو . لم أتذكر شيئا مما رأيته فى رحلتنا عبر فنلندا ، لأنى كنت متشوقا الى رؤية موسكو ، نهاية هذه الرحلة ، وقد غطى هذا على أحداث السفر ، فلم أحفل بها ، اللهم الا شذرات قليلة .

ففى اليوم التالى جلسنا فى القطار الذى كان يغادره المسافرون كلما اقتربنا من الحدود الفنلندية ـ السوفييتية ، حتى لم يبق فى العربة الا أنا وأمى . اتجه كمسارى القطار نحونا قائلا : « بعد ربع ساعة سيصل القطار الى الحدود » وذكر اسما لم أستطع نطقه ، لاشتماله على كثير من حروف العلة . مثل ا ، ت ، واى ، كان اسم محطة الحدود الفنلندية آنذاك ، واليوم ، بعد أن فقدت فنلندا بعض مناطقها على الحدود ، فمن المحتمل أن يحمل هذا المكان اسما سوفييتيا .

* * *

الرحلة الى موسكو

وقفنا على المحطة الصغيرة ـ التى بدت كالمهجورة ـ حيارى ، لا ندرى الى أين نتجه ! ثم تقدم الينا موظف فى المحطة ، فشرح لنا كيفية مواصلة الرحلة الى موسكو : توجد مواصلة صغيرة بين آخر محطة فى فنلندا ، وأول محطة فى روسيا . بعد ربع ساعة تقريبا سيصل القطار الذى يقلكم الى الحدود السوفييتية . ومن هناك تأخذان القطار المتجه الى لينجراد .

لم تكن هذه أول رحلة لأمى الى موسكو ، فقد زارت الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٢٥م . اذ كانت أثناء الحرب العالمية الأولى عضوا

فى « جمعية سبارتاكوس »(١) ؛ ثم انضمت فى عام ١٩١٨م الى الحزب الشيوعى • عملت مدة طويلة وكيلة صحفية للمكتب التجارى السوفييتى فى برلين ؛ ولكنها خرجت فى عام ١٩٢٥ من الحزب الشيوعى الألمانى ، فاعتبرت منذ ذلك الحين من اليساريين الذين لا وطن لهم • اشتغلت — بعد أن تولى « هتلر » السلطة — فى برلين بطريق غير قانونى حتى ربيع عام ١٩٣٥ حيث ذهبت الى السويد •

أما أنا ؛ فقد كنت آنذاك غلاما يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، استولت عليه أحاسيس غامضة ؛ أضفت عليه سرورا بالغا ؛ لأنه سيسافر الى الاتحاد السوفييتى • نشأت فى برلين وكنت تلميذا فى مدرسة « كارل ماركس » وفى نهاية عام ١٩٣١م التحقت بمنظمة الشباب فى الحزب الشيوعى الألمانى ؛ ثم أرسلتنى أمى فى خريف عام ١٩٣٣ م الى السويد حيث أقمت فى أحد بيوت الطلبة ؛ الأمر الذى ساعدنى على تعلم اللغة السويدية بسرعة ؛ اذ استطعت فى هذه المدة اتقانها والتحدث بها بطلاقة •

وعندما جاءت أمى الى السويد ؛ والتقت بى ؛ كان علينا أن نتخذ قرارا يحدد البلد التى ينبغى أن نعيش فيها ؛ فقد تفرقت المجموعة السرية التى كانت أمى أحد أعضائها . وألقى القبض عليهم ، ولا زالت المخابرات العامة الألمانية تبحث عن أمى ؛ ولهذا لا نستطيع أن تعود الى ألمانيا ؛ أما اقامتها فى السويد فلأجل محدد ؛ لأن تصريح الاقامة محدود بزمن معين •

نزلنا ذات يوم بعد العصر نتجول فى أحد ضواحى ستوكهولم الجميلة فدار بينى وبين أمى حديث فهمت منه ما يدور فى رأسها ، اذ وجهت الى الحديث قائلة :

أنت الآن غلام يافع ؛ — هكذا كانت بداية الحديث — ونذا فأنا أريد أن أتحدث معك عن مستقبل حياتك •

---

(١) اتحاد يسارى تكون عام ١٩١٧ م تحت زعامة « كارل ليبكنيشت » و « روزا لوكسمبرج » • وهو يمثل الاتجاه البلشفى منذ ثورة أكتوبر فى روسيا • وفى مؤتمر الحزب الذى عقد فى عامى ١٨ — ١٩١٩ م غير الاسم ، وأصبح الحزب الشيوعى • ويرجع اسم « سبارتاكوس » الى الخطابات التى كان ينشرها « كارل ليبكنيشت » تحت اسم خطابات « سبارتاكوس » •

أومأت رأسى مظهرا ملامح جادة ، كما يفعل كل الشبان الذين بلغوا الثالثة عشرة حين يعاملون كما لو كانوا فعلا فى سن الرشد •

واصلت حديثها :

لا أريد أن أتخذ قرارا دون موافقتك ، فالموقف يبدو كما يلى :

لا نستطيع الاقامة فى السويد ، لأنى لن أتمكن من الحصول على عمل هنا • وقد راسلت كثيرا من المعارف والأصدقاء ، وفكرت فيما كتبوه لى فوجدت أننا أمام أمرين :

اما أن نسافر الى انجلترا ، وعلى وجه التحديد الى مانشيستر حيث يعيش أصدقاء أعزاء • ويمكنك فى هذه الحالة أن تلتحق بمدرسة انجليزية ، وتبقى فى انجلترا طالما النازيون متسلطين على الحكم فى ألمانيا •

فسألتها متعجلا : والأمر الآخر ؟

صمتت لحظة ، ثم قالت : نسافر الى الاتحاد السوفييتى •

فقلت مصمما ومؤكدا : أنا أفضل الاتحاد السوفييتى •

لا أدرى ! أكان موقفى هذا سببا فى تحويل وجهتنا شطر الاتحاد السوفييتى ، أم دخلت اعتبارات أخرى ، وعلى كل فقد قررنا الرحيل •

لم ندرك — آنذاك — المصائب التى سوف تحل بنا بسبب اتخاذنا هذا القرار ، اذ لم يكن فى مقدرو أمى أن تتنبأ بأنها سيقبض عليها بعد سنة ونصف من تاريخ اختيارها الاقامة فى الاتحاد السوفييتى، ولم تتخيل اطلاقا أن الذى سيلقى القبض عليها هو جهاز مخابرات وزارة الداخلية السوفييتية المختص بتعقب أعداء الحزب • ألقى القبض عليها ، فاختفت فى معسكرات العمل السوفييتية اثنتا عشرة سنة ، حيث عادت الى برلين فى عام ١٩٤٨م •

كذلك لم أتصور — آنذاك — أننى سوف أقضى فى الاتحاد السوفييتى عشر سنوات بين مدارسها ، وأنظمة الحزب فيها ، وأننى سأكون ضمن طلبة احدى المدارس السياسية العليا فى روسيا التى تخرج القادة الشيوعيين •• ثم أكفر بهذا النظام الذى اتخذته عقيدة لى منذ طفولتى •

كان هذا كله فى علم الغيب ، فى المستقبل البعيد ، فحديثنا نحن الآن لازال فى أحد أيام يونيو عام ١٩٣٥م حيث كنا ننتظر القطار على

محطة الحدود الفنلندية — الذى سيقلنا الى داخل الاتحاد السوفييتى • دخل قطار صغير على رصيف المحطة فى الموعد المحدد • فرأيت صورة المنجل والمطرقة مرسومة على قاطرته وعرباته ، ولم أكن قد رأيتها من قبل الا على الأعلام التى يحملها المتظاهرون ، لذا اعترانى اضطراب ، بينما كان السائق يطل من النافذة ويحيينا مبتسما • ثم تقدم الينا موظف المحطة الفنلندى قائلا :

هذا هو قطاركم الذى سيوصلكم الى محطة الحدود السوفييتية « بلوسترووف » •

وصلنا الى الحدود بعد بضع دقائق ، على الرغم من أن سرعة القطار لم تزد على سرعة عربة تجرها الخيل ؛ فرأينا من النافذة حاجزا ضخما من الجرانيت ، يقف على أحد جانبيه جندى فنلندى ، وعلى الجانب الآخر أحد جنود الجيش الأحمر — وهو أول جندى سوفييتى تقع عليه عينى — يلمع النجم السوفييتى على قلنسوته ، ملتفتا النظر الى رسم المنجل والمطرقة •

اتجه الينا مجموعة من الرجال — بعضهم عسكريون ، والبعض الآخر يرتدى الملابس المدنية — المكلفين بمراقبة الحدود السوفييتية ، فاقتادونا الى مبنى المحطة حيث فتحوا حقائبنا ، وفتشوها تفتيشا دقيقا ؛ لم يهتموا بالملابس والأطعمة ، بل ركزوا عملهم على الكتب ، فحصوها بعناية رغم أنها كانت كتبا شيوعية ؛ بل تصفحوا بعضها صفحة صفحة •

وأخيرا انتهت عملية التفتيش ، وبعد أن ركبنا قطار « لينينجراد » أطلقت الصفارة مؤذنة بالتحرك • كان القطار مزدحما بالركاب ، غير أنهم أفسحوا لنا مكانا ، فقد كنا الأجنبيين الوحيدين بينهم ، ولهذا كانوا ينظرون الينا مستغربين ، ودارت أحاديثهم — هكذا لاحظت — علينا ، ولكنى لم أفهم كلمة واحدة ، ولم يتبادل أحد منهم كلمة واحدة معنا •

توقفنا فى « لينينجراد » بضع ساعات ، فكانت فرصة لالقاء نظرة على أول مدينة سوفييتية •

تعلو الكآبة كل مظاهر الحياة ، ويخيم البؤس الشديد على هذا المجتمع ، اذ تبدو واجهات المنازل قاتمة ؛ ليس لها رونق وأبهة منازل « استوكهولم » ولا يرتدى الناس هنا ملابس جديدة ، فلا وجه للمقارنة بينها وبين الناس فى « استوكهولم » •• رأيت أطفالا

كثيرة يسيرون حفاة ، وهو منظر لم أره من قبل ، لهذا كان وقعه فى نفسى غريبا ، اذ اعترانى انقباض ، لكن سرعان ما نسيت هذا كله ، لأن ما مر أمام عينى لم ينسجم اطلاقا مع الصورة التى أرغبها •

واصلنا السفر بقطار الليل الى موسكو ، ولما كنت مجهدا بسبب ما مر بى من صور وأحداث خلال النهار ، فقد استسلمت لنوم عميق فى القطار ، ولم أستيقظ الا فى موسكو •

تلك المدينة التى كتب على أن أقضى فيها أعواما كثيرة ، وأن تكون وطنى الثانى •

* * *

مدرسة « ليبكنيشت » فى موسكو

لم يكن وصولنا الى موسكو عن طريق مكتب سياحى ، ولم نأت اليها ضمن وفد رسمى ، ولهذا لم تقم لنا الاحتفالات ، ولم نستقبل استقبالا رسميا ، ولم يحجز لنا فى حجرة فى فندق ، لكن كان فى انتظارنا بعض أفراد ، ربطتهم بأمى صلة صداقة قديمة •

اتجهنا من المحطة — مخترقين موسكو — الى المنزل رقم ٥ بشارع « جرانوفسكى » حيث نزلنا فى شقة أحدمعارفناوتسميتهاشقةفيهبعض المبالغة ، فقد كانت عبارة عن حجرة واحدة فقط • دار الحديث فى هذه الشقة حول الخطط التى تتعلق بحياتنا فى موسكو • وكان أول ما فكرت فيه أمى مسألة التحاقى بمدرسة ، اذ قالت :

« يجب أن يلتحق الغلام بمدرسة ، كيف وهو لا يعرف الروسية ؟ »

فأجاب الحاضرون :

ليس ذلك أمرا ضروريا • فعدم معرفته الروسية ليست مشكلة ، اذ يوجد فى موسكو مدرستان أجنبيتان ، احداهما انجليزية ، والأخرى ألمانية •

على فكرة ! ابنك محظوظ ، لأن المدرسة الألمانية ستنتقل فى أول سبتمبر القادم الى المبنى الجديد الجميل رقم ١٢ فى شارع « كربوتكن » • سألت مندهشا :

هل يوجد ألمانيون فى موسكو ؟ • تبسم الحاضرون وقالوا :

طبعا ! يعيش فى موسكو بضعة آلاف من الألمانيين والنمساويين المنفيين ، كان كثير منهم أعضاء فى رابطة الدفاع الذين اشتركوا فى

الثورة ضد « دلفوس »(١) فى فبراير ١٩٣٤ ، وبعد فشلها لجـأوا الى موسكو .

كذلك يوجد هنا نادى ألمـانى ، وجريدة يومية تصدر باللغـة الألمـانية تحت اسم « الجريدة المركزية الألمـانية » ودار نشر للعمال الأجنب فى الاتحاد السوفييتى وهى تنشر كتبا باللغة الألمـانية .

هكذا بدأت حياتنا فى موسكو ، كان البحث عن سكن هو أول ما يجب عمله ، فقد أقمنا فى الأيام لأولى عند أصدقائنا ، يوما هنا ، وآخر هناك حتى وجدنا حجرة مفروشة ، ثم بحثت أمى عن عمل ، أما أنا فلم يكن لدى ما يجب عمله ، لأن المدارس لم تفتح بعد أبوابها ، اذ لا زلنا فى فترة الاجازة الصيفية .

كان أول سؤال وجه الى فى اليوم التالى لوصولنا الى موسكو :

ألا تريد أن ترى مترو الأنفاق ؟ لأنه كان حديث المجتمع الذى لا ينتهى . وكان الكلام عنه وسيلة للفخر والاعتزاز بالنفس ، فغطت أخبار افتتاحه — بدأ العمـل به كوسـيلة للمواصلات فى ١٥ مايو سنة ١٩٣٥ م — على كل ما عداه من أحداث : وطبعت صيغة الكلام بين الناس على نحو يكاد يكون واحدا فى جميع المستويات لثقافية .

هل ركبت مترو الأنفاق ؟ يليه مباشرة :

هل أعجبك ؟ كيف كان شعورك ؟ ثم ينسـاب حديث طويل عن مدى أهميته فى حركة المواصلات ، وعن مزاياه العديدة . مرة واحـدة قابلت فيها أحد الذين لم يتحمسوا لمترو الأنفاق هذا ، بل على العكس ، أبدى ملاحظة تنم عن معارضته للنظام الحاكم : وذلك حيث قال :

« لو أن موسكو تتمتع فوق أرضها بواحد على عشرة من نظافة ما تحت أرضها لكان أحسن وأولى » كانت ملاحظة فى غاية الدقة ، فقد كان الاختلاف بين شوارع موسكو وأنفاقها واضحا جدا .

لم يكن من السهل أن يهتدى المرء الى أى عنوان فى موسكو ، فليس هناك خريطة للمدينة تبين مواقع شوارعها ، وما تقدمه لنا الخريطـة التى كانت مع أمى ضئيل الفائدة ، لأنها طبعت فى عام ١٩٢٤ ، فلا يتطابق ما فيها مع واقع المدينة ، اذ غير هدم المنازل القديمة ، واقامة

---

(١) « انجيلبيرت دولفوس » (١٨٩٢ — ١٩٣٤) تولى رئاسة الوزراء فى النمسـا فى مايو سنة ١٩٣٢ وظل فيه الى أن اغتاله الاشتراكيون .

المعمارات الحديثة ملامحها ، واختفى كثير من أسماء الشوارع القديمة • وكان من السابق للأوان أن يجد المرء فى جميع المكتبات آلاف الخرائط التى تبين ما ستكون عليه المدينة فى عام ١٩٤٥م • فنحن الآن فى عام ١٩٣٥م ، ونحتاج الى ما يقدم لنا المساعدة فى موسكو على حالتها الراهنة • لذا تساءلت أمى بلستغراب :

أليس هذا اغراقا فى الخيال ؟ ان من المعقول أن يقدم لى ما أحتاجه الآن لا ما سوف أطلبه بعد عشر سنوات !!

فكانوا يجيبون بكل بساطة !! سيبدأ العمل بمشروع السنوات العشر فى أوائل يوليو ، ويستلزم هذا تجنيد كل وسائل الاعلام للدعاية له ، ولهذا طبعت المنشورات التى توضح الصورة التى ستؤول اليها موسكو فى عام ١٩٤٥م ، أما حالتها اليوم فيعلمها الجميع !!

اذن لا مفر من أخذ الخريطتين معنا ، عندما نتجول فى الشوارع رغم أن كليهما لا يتصل بواقع المدينة ، فاحداهما تقدم صورة الماضى والأخرى ترسم الأمل الذى لازال خطوطا متخيلة •

جسمت لنا تجربتنا مع خرائط المدينة نموذجا حيا لحقيقة الظروف التى يمر بها الاتحاد السوفييتى ، فقد كان عام ١٩٣٥م من أعوام فترة الانتقال التى خلفت وراءها ثورة وحربا أهلية ، وفترة الخطة الخمسية الأولى ، أما أعوام التطهير والاعتقال بالجملة ، والأحداث التى أدت الى عقد معاهدة بين « ستالين » و « هتلر » والحروب التى وقعت بين روسيا وفنلندا فلا زالت فى علم الغيب • ألغيت بطاقات التموين فى مستهل عام ١٩٣٥م ، وأعلن فى مؤتمر سوفييتى — اجتمع اجتماعا فوق العادة — أن لجانا خاصة تعكف الآن على وضع دستور يضمن الحرية للشعب ، ويؤكد أن الديمقراطية هى اطار العمل السياسى •

اجتزنا المراحل الصعبة — كان هذا طابع معظم أحاديث المسئولين وأعضاء الحزب آنذاك — وأحوالنا آخذة فى التحسن لا محالة • كذلك سيصبح النظام السياسى أكثر ديمقراطية ، اذ يرى المرء هذا واضحا فى مسودة الدستور •

كان الكل متفائلا الا نفر قليل أبدوا شكوكهم فى حقيقة هذه الوعود • وسرعان ما أثبتت الأحداث أنهم كانوا على حق فى موقفهم هذا • ففى الأسابيع الأولى سمعت أكثر من مرة اسم « كيروف » فمن هو كيروف ؟ كان عضوا فى المكتب السياسى ، واغتيل فى لينجراد

فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٤م ، فقامت السلطات بالقاء القبض على الناس بالجملة دون تمييز . اذ لم يقتصر ضحاياها على أعضاء أحزاب وتجمعات أخرى معادية للحزب الشيوعى ، أو على أولئك الذين لم ينضموا الى هيئات سياسية البتة ، بل تجاوزت اجراءاتهم هذا الأسلوب الذى كان معروفا عندهم من قبل ، فشمل قادة بلشفيين .

اذا تناول الناس حديث « كيروف » خفتت الأصوات ، وارتعدت مخارج الحروف ، وبدت على الوجوه معالم الكفر بكل اتجاه . وقد عبر عن هذا أحد أصدقائنا بقوله :

« لقد هزتنى حالة « كيروف » من الأعماق ، لأن البلشفى القديم كان بالنسبة لنا حتى قبل أسابيع قليلة اسم شرف ، وكان الانتماء الى مجموعة البلشفيين ينظر اليه من عل ، اذ كان وساما رفيعا لا يناله الا من ابتسم له الحظ .. واليوم ! حلت هذه المجموعة فى ٢٦ مايو ، دون ابداء سبب سياسى وصودر مقرهم » .

دارت معظم الأحاديث فى الأسابيع الاولى لوصولنا حول هذا الموضوع فانتشرت هذه الدعابة :

ألم تسمع آخر خبر ؟ لقد حلت المنظمة الثورية المساعدة !

أى منظمة تقصد ؟

الهيئة البلشفية القديمة .

كانت دعابة ، ولكن لها مغزى سياسى مر .

سمعت هذه الأحاديث عندما كنت غلاما يهتم بالسياسة رغم صغر سنه .

وكانت الآراء مختلفة ، فهناك المتفائل ، والمتشائم ، المؤيد ، والمعارض ، المدافع ، والناقد ، اذ كان المرء يستطيع آنذاك أن يتكلم بحرية فى بعض الموضوعات ، لأن حملة التطهير — التى امتدت من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٨م — لم تكن قد بدأت بعد .

التحقت فى ١ سبتمبر ١٩٣٥م بالمدرسة الألمانية « مدرسة كارل ليبكنيشت » فى موسكو . وكان مقرها مبنى جميلا أقيم على أحدث طراز ، وهو مكون من أربعة طوابق ، وحجراته واسعة تدخلها الشمس . هو واحد من اثنين وسبعين مبنى جديدا ، شيدت فى عام ١٩٣٥ م فى موسكو . يبدو من الخارج كأى مبنى مدرسى حديث فى غرب أوربا :

ولكن عندما دخلته تطلعت مندهشا الى أحد الأركان حيث أقيم تمثال ضخم لستالين كتب على قاعدته :

لا يوجد حصن ، يصعب على البلشفيين اقتحامه • « ستالين »

وفى المدخل الرئيسى للمدرسة رأيت شعارا جديدا ، كتبت كلماته بالون الأبيض على قماش أحمر :

تعلموا ، تعلموا ، ومرة أخرى تعلموا • « لينين »

دخلت عند الناظر — وكان يدعى الزميل « شيلاسكو » لانهاء الاجراءات ، ولم يكن الالتحاق بالمدرسة سهلا ، لأن نظام التعليم فى الاتحاد السوفييتى يختلف اختلافا كبيرا عن أنظمة التعليم فى البلاد الأخرى • فالتعليم الالزامى هناك لا يبدأ الا عند بلوغ الطفل سن الثامنة . ويستمر سبع سنوات ، تليها ثلاث سنوات لمن يريد الالتحاق بالجامعة أو المعاهد العليا •

قال الناظر موجها خطابه لى :

« طبقا لنظام التعليم السوفييتى ستقبل فى السنة السادسة » •

صعدت سلم المدرسة متخاذلا • وقدمنى المدرس للتلاميذ باسم : « التلميذ الجديد » ، فرمقونى بنظرات فضولية وتهامسوا مع بعضهم • جلست على مقعدى وأنا مرتبك بادى الخجل • وعندما تأملت زملائى فى الفصل رأيتهم جميعا يلبسون مناديل الجوالة الحمراء ، وعندما أجلت النظر مرة أخرى رأيت فتاة تجلس فى الصف الأمامى على اليمين ، وهى الوحيدة فى الفصل التى لا ترتدى هذا المنديل •

كان التدريس باللغة الألمانية الا أن المناهج سوفييتية ، ومعظم المدرسين كانوا من اللاجئين السياسيين مثلنا ، جاءوا من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا مارين بالسويد •

كانت مادة التدريس وخططه متطابقة تماما مع ما يطبق فى المدارس الروسية ، فكل الكتب المقررة — حتى كتب الرياضة والكيمياء — مترجمة من اللغة الروسية • كان الاختلاف كبيرا بين هذه المدارس وبين مثيلاتها فى الغرب وان بدا فى بادىء الأمر مماثلة ظاهرية بينهما ، فالواجبات فى مدرسة « كارل ليبكنيشت » أكثر مما كان يطلب منى فى أى مدرسة زرتها ، اذ يجب على التلميذ أن يعمل واجبات منزلية كثيرة ومتعددة مما يضطره الى بذل مجهود كبير والا تخلف عن متابعة الدراسة •

تأخذ كل يوم تقريبا ساعة لغة روسية بالاضافة الى اللغة الانجليزية كلغة أجنبية ثانية ، وتحظى المواد الرياضية ، والعلوم الطبيعية باهتمام كبير . اذ يبدأ فى السنة السادسة تعليم الجبر ، والهندسة ، والكيمياء ، وبدلا من الرسم يتعلم التلميذ ما يعرف باسم : رسم الهندسة الميكانيكية . وفى مادة التاريخ أخذنا التاريخ القديم كله ، وفى الجغرافيا درسنا جغرافية البلاد الرأسمالية (يدخل تحت هذا جميع البلاد عدا الاتحاد السوفييتى) ، وتتناول هذه المادة البناء الاقتصادى ، والعلاقات السياسية لكل دولة على حدة . وفى الأدب درسنا الأدب الروسى والأدب الألمانى . خصصت ساعة واحدة لمادة المجتمع . درسنا فيها التطور السياسى ، والهيكل الحكومى للدولة فى الاتحاد السوفييتى . استبدلت هذه المادة فى السنوات اللاحقة بمادة « علم الدستور » .

كانت رقابة تحصيل التلاميذ فى هذه المدرسة — اذا قيست بالمدارس الحديثة التى زرتها من قبل — شديدة ، فكل اجابة تسجل مرتين : احداهما فى سجل الفصل الذى يحتفظ به المدرس ، والأخرى فيما يسمى السجل اليومى ، ويظل مع التلميذ . ويجب على أولياء الأمور التوقيع عليه أسبوعيا ، بما يفيد أنهم يتابعون أعمال التلميذ فى المدرسة .

قسم العام الدراسى الى أربعة أقسام ، يعقب كل قسم مراجعة وامتحان . وفى آخر العام يعقد امتحان تحريرى فى جميع المواد ، وفى معظمها شفوى ، وتحريرى .

* * *

التحاقى بالجوالة السوفييتية

اتبعت كل الأساليب لحملنا على بذل أكبر مجهود لتحصيل العلم ، فالتلميذ الذى كان يحصل على درجة ضعيف ، أو على تعبير « ملاحظة » — وهى كلمة تأنيب لمن يبدو منه التخاذل فى التحصيل — يجب عليه أن يشرح أسباب ذلك أمام جميع تلاميذ السنة الدراسية . اذ يبدأ الاجتماع بكلمة افتتاح يلقيها المدرس ، ثم يوجه — الأستاذ أو زعيم السنة — الى التلميذ السؤال التالى :

ما هى الأسباب التى جعلتك تحصل على درجة ضعيف ؟

وعندما يبدأ التلميذ فى ابداء الحجج التى تحفظ ماء الحياء فى وجهه ، يقاطعه التلاميذ المجدين بنبرة حادة لاذعة :

« انه لعار عليك أن تحصل على تعبير « ملاحظة » ، وليس من الجدارة أن تحاول التخلص من هذا بابداء أى علة مهما كانت » كان هذا أقل صور النقد ، والنقد الذاتى الذى كان منتشرا فى الاتحاد السوفييتى .

بينوا لنا فى كل مناسبة ضرورة انزال العقاب الصارم على من يهمل ، فلا ينبغى أن تطيع الأوامر فحسب ، بل تكافح فى سبيل تعميقها وتحسينها . اذ يوجد نوعان من الطاعة — هكذا قالوا لنا — نوع يعتمد على الخوف والاضطهاد وهو ما يطبق فى البلاد الرأسمالية ، والآخر وهو نظام الاتحاد السوفييتى يقوم على الاختبار والفهم ، وهما من أسس تشييد الاشتراكية(١) .

اهتموا اهتماما بالغا بتعويد التلاميذ على النظام التربوى السوفييتى ، عن طريق اشعال روح المنافسة فى المدرسة ، فالفصل الذى يكون عدد الحاصلين فيه على ضعيف أو تعبير « ملاحظة » أقل ، يحتل مرتبة أعلى من غيره ، وتلعب الجوالة دورا فاصلا فى ميدان الالتزام بعمل ما يطلب من التلاميذ .

جاءتنى تلميذة بعد أسبوعين من بدء الدراسة وقالت لى :

ألا تحب أن تلتحق بالجوالة ؟

فقلت : طبعا ! ولكنه ليس ضروريا بالنسبة لى ، فأنا عضو فى جوالة برلين منذ عام ١٩٣٢ م .

قالت : عضويتك فى برلين لا تنفع هنا ، فيجب أن تنضم الى جوالة الاتحاد السوفييتى .

قلت : حسنا ! أين أقيد اسمى ؟

قالت : مهلا .. مهلا .. لا تؤخذ الأمور هنا بمثل هذه السهولة ، فلا تستطيع أن تقيد اسمك ، فتصبح ببساطة عضوا ، فاذا كنت مستعدا للالتحاق بالجوالة ، أقيد اسمك فى هذه القائمة ، ثم يعلن قبولك فى حفل مجموعة المدرسة ، بعد أن يقرأ زعيم الجوالة أمامك القسم ، وتردده ورائه ، وبعدها تأخذ منديل الجوالة .

أقيم احتفال رسمى بعد هذه المقابلة بمدة قصيرة ، حيث دخلت

---

(١) فى هذا التقسيم مغالطة وقلب للحقائق ، ويبدو من استدراك المؤلف بقوله : « هكذا قالوا لنا » أنه لا يقر هذا التفسير . (م . شامة) .

مجموعة الجوالة كلها فى صالة المدرسة بالخطوة العسكرية المنتظمة ، ثم صف الأعضاء الجدد فى الوسط ، ووقف حامل العلم فى المقدمة ، والعازفون على الآلات الموسيقية فى المكان المخصص لهم ، ثم بدأ زعيم الجوالة فى قراءة القسم :

« أتعهد مختارا أمام الزميل ... (وكنا نردد القسم كلمة كلمة) بأن أدافع باخلاص وشجاعة عن الطبقة العمالية ، وأن أحمى مبادىء « لينين » المقدسة ، وأن أكون مثلا يحتذى به فى تنفيذ واجبات الجوالة » .

بعد الانتهاء من المراسيم العامة أقيم احتفال خاص لتقليدنا منديل الجوالة ، وربطه بسوار ، لمحت شعلة مرسومة عليه وعبارة : « كن مستعدا دائما » وهى الصيغة الروسية التى كنت أعرفها من قبل كتحية للجوالة . وتشير هيئة المنديل والسوار الى معانى رمزية ، فأطراف المنديل الأحمر الثلاثة ترمز الى : الحزب ، ومنظمة الشباب الشيوعى ، وشباب الجوالة . والنتوءات الخشبية الخمسة المرسومة على السوار تشير الى قارات الأرض الخمسة . وثلاث شعلات ترمز الى التنظيمات الشيوعية العالمية الثلاث(١) ، وقد تنوسى الرمز الأخير فيما بعد فلم يذكره الرسميون فى أحاديثهم .

تعلمنا تاريخ حياة « لينين » و « ستالين » وتاريخ الجوالة السوفييتية ، فعرفنا أن أول مجموعة للجوالة تكونت فى عام ١٩٢٢م ثم صدرت جريدة لها فى عام ١٩٢٥م وهى جريدة برافدا للجوالة . وتضم المنظمة — أى منظمة الجوالة — الأطفال من ١١ — ١٦ سنة ، بلغوا فى ذلك الوقت — وهو عام ١٩٣٥م — عشرة ملايين عضوا .

وتتلخص واجباتهم — هكذا علمونا — فى حماية المدرسة ، والمحافظة على النظام ، وحماية المدرس ، وتربية النشء على الشعور بالمسئولية تجاه الوطن الاشتراكى .

---

(١) يقصد بذلك الاتحادات التى جمعت الأحزاب الشيوعية فى العالم ، فقد كان الأول بزعامة « كارل ماركس » ، وتفرق فى عام ١٨٧٢ م أثر الخلاف بينه وبين « بوكانين » (١٨١٤ — ١٨٧٦) ثم أقيم الثانى فى باريس عام ١٨٨٩ م لكنه تفرق أثناء الحرب العالمية الأولى ، وتأسس الثالث بزعامة روسيا ، وضم كل الأحزاب الاشتراكية فى العالم وكان مرتبطا ارتباطا كليا بالسلطة فى الاتحاد السوفييتى ، لكن فكرته انهارت فى عام ١٩٤٣ م بسبب تحالف روسيا مع المعسكر الغربى فى الحرب العالمية الثانية . (م . شامة) .

ظهرت انحرافات فى صفوف المنظمة فى الماضى ، فقد قام بساريون بدعوة استهدفوا من وراءها اشراف المدرسة على توجيه الجوالة ، ولم يكن هذا الاتجاه خطيرا جدا فقط — هكذا بينوا لنا — بل كان أيضا اتجاها معاديا للحزب ، وعدم وضع قيادة المدرسة فى وضعها الصحيح ، ولم يقتصر الانحراف على اليساريين بل تعداهم الى اليمينيين المتخاذلين الذين رأوا أن منظمة الجوالة يجب أن تكون ضمن ادارات المدرسة ولا يقل هذا الرأى خطرا عن سابقه ، لأن معناه تصفية هذا التنظيم • وقهرنا كلا الاتجاهين بقرار أبريل سنة ١٩٣٢م وهو « القضاء على الانحراف اليمينى واليسارى » •

درسنا مظاهر التقدم ، والظواهر الطبيعية ، والأحوال التى تبدو لأول وهلة متشابهة ، ولكنها مختلفة كل الاختلاف ، تبعا للبيئة ، سواء كان ذلك فى البلاد الرأسمالية أو فى الاتحاد السوفييتى •

انطبعت أفكارنا بعد مدة قصيرة بالتفسير الاشتراكى ، وجرى منا مجرى الدم فى العروق ، واتحد بحواسنا لدرجة أننا لم نعد نرى غير هذا الاتجاه فمثلا :

— رفع أسعار المواد الغذائية فى البلاد الرأسمالية دليل على الاستغلال الفاحش للعمال • وتفسر ظاهرة رفع أسعار المواد الغذائية فى الاتحاد السوفييتى تفسيرا مغايرا تماما ، فهو « مساهمة ضرورية للاقتصاد الوطنى فى بناء الاشتراكية » •

— وجود المنازل الآيلة للسقوط فى الغرب ، « علامة — هكذا فسرنا هذه الظاهرة — على انحطاط مستوى معيشة العمال » • ووجود مثل هذه المنازل فى موسكو « أثر من آثار الماضى » •

كنا نمدح الوقائع أو نقبحها تبعا للبلد التى ظهرت فيها ، اذ طبعتنا التربية الاشتراكية بطريقة التفكير هذه ، التى رسخت فى ذهنى لدرجة أنه لم يكن يخطر ببالى مطلقا — على مدى أعوام طويلة — أن أفكر بأسلوب آخر •

* * *

بيت الأطفال رقم ٦

غير سير الأحداث فى صيف عام ١٩٣٦ م مجرى حياتى ، فقد كنت أسكن مع أمى فى حجرة مفروشة فى المنزل رقم ٦ بشارع « جوركى » ،

فساكنها الأصلى — وهو مهندس — مكلف بعمل فى مدينة « اجاركا » وهى مدينة صغيرة فى شمال سيبريا ، يجرى العمل فيها على قدم وساق لتشييدها وتطويرها • وقد انتهى الآن من عمله ، ويجب أن يعود الى موسكو •

استمرت أمى أسابيع عديدة تبحث عن حجرة غيرها ، ولكن لم تجد ، وضاع عليها كثير من الفرص ، اما بسبب أننا ألمانيون ، أو أن أصحاب الشقق لا يريدون أن يسكن مع أمى أيضا غلام يبلغ الرابعة عشرة من عمره • ولهذا حاولت بكل ما تملك من جهد أن تجد لى مأوى •

عادت أمى ذات يوم مسرورة الى البيت وقالت لى :

« عندى لك أخبار سارة ! سوف تدخل بيت الطلبة رقم ٦ ، التابع لرابطة الدفاع النمسوية ، وأعتقد أن جميع سبل الراحة ، سوف تهيأ لك هناك » •

لم تكن أمى مبالغة فى هذا ، فالبيت فى حارة « كلاشنى » رقم ١٢ ، وهو موقع فى وسط المدينة ، بين ميدان « أربات » وبوابة « نيكيتسكى » • وكان ملكا لأحد أغنياء الروس السابقين ، يتميز على ما حوله من أبنية بفخامته وضخامته •

خصص هذا المبنى لأبناء رابطة الدفاع عن الشيوعية فى النمسا ، اذ عندما انتكست ثورتهم فى فبراير سنة ١٩٣٤ م ، لم يكن اللاجئون الى الاتحاد السوفييتى رجالا فقط — وهم مئات — بل كان معهم عديد من الأطفال ، بعضهم فقد والديه فى الثورة •

ففى ١٨ أغسطس ١٩٣٤ — وهو يوم يحتفل به كل عام فى بيت الطلبة — وصل قطار خاص الى حدود الاتحاد السوفييتى ، يحمل هؤلاء الأطفال ، فتوالت الاحتفالات بهم ، ونشرت كل الصحف السوفييتية مقالات ، وتحقيقات مطولة عنهم ، ثم دعاهم معسكر الجوالة المسمى « أرتك » — وهو أحسن معسكر فى الاتحاد السوفييتى ، ويتخذ شبه جزيرة القرم مقرا له لقضاء الصيف فى القرم •

انتهت اقامتهم فى القرم ، فعادوا الى موسكو ، واتخذوا المنزل رقم ١٢ فى حارة « كلاشنى » مقرا دائما لهم • لم ينفرد أطفال الديمقراطيين الاشتراكيين النمسويين ، وأطفال أعضاء رابطة الدفاع النمسوية بهذا المنزل بل شاركهم فيه أيضا أطفال الشيوعيين الألمانيين •

لم يشبه هذا البيت — رغم تسميته المتواضعة « بيت الأطفال رقم ٦ » — بيوت الأطفال المعروفة فى الاتحاد السوفييتى فى أى شىء ،

فقد عومل بمكانه ، كما لو كانوا أعضاء وفود أجنبية ، جاءوا لزيارة الاتحاد السوفييتى لمدة قصيرة ، اذ تحاك ملابسهم فى محلات الخياطة الممتازة ، وتقوم طباخة نمساوية بتجهيز الطعام لهم ، وللبيت أتوبيس خاص ، يوصل الأطفال الى المدرسة فى الصباح ، ويعود بهم بعد انتهاء اليوم الدراسى ، ويقوم لهم بسفرات أخرى • ولهم مستوصف خاص تحت رئاسة طبيبة ألمانية ، يراقب الحالة الصحية للأطفال ، فتقاس الحرارة كل صباح • وأينما ذهب أطفال أعضاء رابطة الدفاع ، يقابلون بالترحاب ، والابتهاج • وفى كل العروض الأولى فى الأوبرا والمسارح ترسل لهم أعداد هائلة من التذاكر ، كانت تفيض عن الأشخاص الذين يريدون حضور تلك الحفلات •

كان المدير شيوعيا ألمانيا يدعى « بايس » ، والمشرفون لاجئين سياسيين ، ألمانيين ، ونمسويين ، أو من الروس الذين يتكلمون الألمانية بطلاقة ، اختارتهم اللجنة المركزية لمنظمة الشباب للقيام بهذا العمل •

انقضى عامان على افتتاح هذا المقر ، عندما دخلته فى ٢٦ سبتمبر ١٩٣٦ م كان قد أدبر زمن الاحتفالات المتكررة ، والمقابلات الرسمية ، وبدأت فترة سحب الامتيازات ، اذ اختفى الأتوبيس الخاص ، وعلى الأطفال أن يذهبوا الى المدرسة سيرا على الأقدام ، وتوقفت الرعاية الطبية ، فلم تقس الحرارة للأطفال يوميا ، كما كان من قبل ، وتلاشت أنواع الطعام الفاخر ، فصارت وجبات عادية ، وان كان لا يزال أحسن بكثير مما يقدم للأطفال الروس ، غير أنه لا زالت بعض الدعوات تقدم بين الحين والآخر ، ولكنها أقل بكثير من دعوات السنتين الأوليين ، كذلك حل مدير روسى محل الألمانى •

تراوحت أعمار الأطفال فى البيت — آنذاك — بين الثامنة والسادسة عشر ، فأطلق على تلاميذ السنوات الأربع الأولى « الصغار » وعلى تلاميذ الفصل الخامس والسادس « المتوسطون » وعلينا نحد تلاميذ الفصل السابع ، والثامن ، والتاسع « الكبار » •

أيقظت وسائل النشاط المتعددة ميولنا الفطرية ، وطورتها ، اذ كان لأصحاب المواهب الموسيقية دروس خاصة ، وتكونت جمعية تمثيل لهواته ، أشرف عليها الممثل « فايلاند رود » ، وهو زنجى لاجىء فى الاتحاد السوفييتى ، مثل فى فيلم « السيرك » ، كما مثل فى أفلام سوفييتية أخرى • أما نحن أصحاب الميول الأدبية ، فقد كونا جمعية

الأدب ، كان الأدباء الالمانيون الذين اتخذوا الاتحاد السوفييتى مقرا لهم يرعونها ويوجهون أعضاءها .

زارتنا الوفود الأجنبية ، وغالبا ما تفقد حالتنا ممثلون عن قطاعات الحزب الشيوعى الألمانى ، أو النمسوى ، واشترك معنا « كوبلنج » السكرتير الأول للحزب الشيوعى ، أو « فيلهلم بيك »(١) فى احتفالات أول مايو ، و ٧ نوفمبر ، ورأس السنة الميلادية . وكان لنا — بجانب الأعياد الرسمية — أعيادنا الخاصة : ١٢ نوفمبر ، وهو ذكرى ثورة رابطة الدفاع ، و ٨ أغسطس وهو يوم وصول الأطفال الى الاتحاد السوفييتى . وتقدم الجوائز فى هذه الاحتفالات للتلاميذ المتفوقين ، وكانت جوائز تفوق بكثير ما كان يقدم فى بيوت الطلبة السوفييت .

كانت توجه الينا الدعوة لحضور الاحتفالات الرسمية الكبرى فى موسكو ، حيث كنا نستقبل « كضيوف الشرف » بالهتاف والتصفيق من كل الحاضرين .

كذلك كانت لنا بعض الحقوق الخاصة فى اظهار الشعارات السياسية ، فقد اختلفت الشعارات المعلقة على الحوائط عن الشعارات المعروفة فى الاتحاد السوفييتى : اشادة بالمناضلين الألمانيين والنمسويين ضد النازية ، والفاشيستية ، أو تحية للفرق العالمية التى اشتركت فى الحرب الأسبانية ، كذلك لم تعلق صورة أحد من أعضاء المكتب السياسى السوفييتى ، بجانب صورة « لينين » و « ستالين » ، بل علقت صورة لـ« يوحنا كوبلنج » و « ديمتروف » و « أرنست تيلمان » و « فيلهلم بيك »

كنا مشهورين فى موسكو آنذاك ، فاذا خرجنا نتجول فى المساء — وغالبا ما كانت هيئتنا تبدو أحسن بكثير من الأطفال السوفييت — سمعنا أحيانا من يقول لصاحبه :

انظر ! هؤلاء أطفال رابطة الدفاع . كنا سعداء ، ولم نكن ندرك أحوال الأطفال السوفييت .

كانت علاقتنا بالمشرفين والمدير الروسى طيبة ، ما طلبنا شيئا الا وسارعوا بتنفيذه ، كلما كان ذلك ممكنا . كذلك تكون منا عن طريق

---

(١) ١٨٧٦ — ١٩٦٠ م ، انضم فى ١٨٩٥ للحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا ، ثم للحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٨ م . نفى الى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٣٣ م ، وأصبح عام ١٩٤٥ م سكرتيرا للحزب الشيوعى الالمانى ، ثم تولى رئاسة ألمانيا الديمقراطية فى عام ١٩٤٩ م . (م . شامة) .

الانتخاب مجلس شورى ، كان له نوع من حق تقرير المصير (يقصد بذلك أنه كان يتمتع بنوع من المشاركة فى ادارة البيت) .

كان اتصالنا بالعالم الخارجى عن طريق مكتبة الأدب الأجنبى فى « ستوليشنيكوف برويلوك » على بعد خمس عشرة دقيقة من بيتنا .

ضمت هذه المكتبة — التى وضعت فى كنيسة صغيرة ، أغلقت فى وجه المصلين فى السنوات الأولى بعد قيام الثورة — كتبا ألمانية ، وانجليزية ، وفرنسية ، وأسبانية ، وايطالية .

كنت أذهب كل يوم تقريبا ، مع أصدقائى ، وأقضى بضع ساعات فى قاعة المطالعة ، فقد كان يوجد هناك — بجانب الكتب الألمانية القديمة — كثير من الكتب الحديثة لـ« فرانس فيرفيل » و « توماس مان » و « هاينزيش مان » و « يعقوب فاسرمان » و « ستيفان زفايج » و « ماكس برود » و « اميل لودفيج » و « ليون فوختفانجر » و « أرنولد زفايج » ولكل الكتاب المنفيين الذين يتعاطفون مع الاتحاد السوفييتى أمثال : « يوجنا ر . بيخر » و « آنا سيجرس » و « فريدريش فولف » و « فريتس اربين بيك » و « بودو أوزى » و « ايريش فاينر » و « فيلى بريديل » .

بدت لنا قاعة المطالعة فى أول الأمر ، كما لو كانت فردوسا ، ولكن سرعان ما تعرفت على الظلال الداكنة فيها ، اذ عندما تناولت كتابا لـ« ترافن »(١) . أسقط فى يدى ، وعقدت الدهشة لسانى ، ذلك أنى وجدت فقرات بأكملها لا تقرأ ، لأن الرقابة طبعت على الحروف حبرا من نوع خاص يجعل القراءة متعسرة ، ولا يفهم القارىء أنها مطموسة أو ممسوحة بل يخيل اليه أنها من الاهمال فى الطبع . باءت محاولاتى — فمثلا كنت أضع الصفحة فى مواجهة النور الساطع لقراءتها — بالفشل ، فقد كانت هندسة وضع الحبر على الحروف فى غاية الدقة والاتقان .

لم تستعمل الرقابة هذه الطريقة على الكتب فقط بل فى الصحف والمجلات ، وكذلك أيضا حيث تتنافى رقابتهم مع المنطق ، اذ يمارسونها مع المجلات التى يصدرها الحزب الشيوعى الألمانى ، أو يصدرها أشخاص يتعاطفون معه . كنا نقرأ فى قاعة المطالعة — ما عدا المجلات السوفييتية —

---

(١) أديب يقال انه ألمانى الأصل ولد فى عام ١٨٨٢ م وكتب بثلاث لغات : الألمانية ، والفرنسية ، والأسبانية . (م . شامة) .

المجلة التى كانت تصدر آنذاك فى تشيكوسلوفاكيا : « العلم الأحمر » ، والصحيفة اليومية لباريسية Die neue أو (Periser Tageblatt Weltbühne) وهى صحف تعبير فى اتجاه الخط السوفييتى ، ومع ذلك طمست فقرات منها على النحو السابق ؛ لأنها تتحدث عن أحداث وقعت فى الاتحاد السوفييتى، ولم تنشر فى صحفها •

لم نهتم — نحن الذين أطلق عليهم فى بيت الطلبة اسم « الكبار » — فقط بالكتب الأدبية ، بل بالمطبوعات والأحداث السياسية أيضا ، ولا يعد هذا من الأمور المستغربة ، اذ تتدخل التنظيمات السياسية فى توجيه الحياة فى الاتحاد السوفييتى ، على نحو لا يوجد فى أى بلد آخر فى العالم ، فمن النادر أن يمر حدث ، دون أن تثار حوله ضجة اعلامية ، فتنظم مسيرات شعبية ، وتعقد مؤتمرات ، واجتماعات ، وتنشر الصحف أخبارها بالبنط العريض فى صفحاتها الأولى ، وتذيعها محطات الاذاعة ، والتليفزيون بأسلوب تجعلها تغطى على غيرها من الأحداث التى لا تخدم أهداف الأيديولوجية الاشتراكية •

تدل معظم التقارير الغربية على أن حالة المواطن السوفييتى الذى كتب عليه أن يعيش فى ظل هذا الاطار الاعلامى ، تدعو الى الأسى والحسرة ، ولئن صح هذا بالنسبة لقطاع كبير من الجماهير ، فليس هو حال جميعهم ، لأن نسبة كبيرة من الشباب تهتم بالمشاكل السياسية ، وتحاول بمجهودها الذاتى أن تصل الى تصور خاص لما يدور حولها ، وتكوين رأى خاص غيه ، لم ينتظر معظم المجموعة المتقدمة فى السن — من ١٤ الى ١٧ — فى بيت الطلبة ، حتى يقدم لها المسائل السياسية — طبقا للاتجاه الرسمى فى الدولة — فى المدرسة أو فى معاهد منظمة الشباب « الكمسمول » ، بل اهتمت قبل ذلك فى أوقات فراغها بقراءة الماركسية اللينينية • كنا اذا فرغنا من عمل واجباتنا المنزلية ، قرأنا الكتب السياسية التى كنا نستطيع الحصول عليها لـ« ماركس » و « انجلز » و « لينين » و « ستالين » • لم يجبرنا أحد على قراءتها ، ولم يطلب منا أحد أن نتثقف سياسيا ، وانما كان ذلك بحريتنا واختيارنا ، دفعنا اليه اهتمامنا بالأيديولوجية الاشتراكية ، اهتماما جعلنا نتناقش فيما قرأناه أثناء تجولنا فى شوارع موسكو •

لم يكن عندنا — نحن سكان المنزل رقم ١٢ فى حارة « كلاشنى » — فكرة عما كان يدور فى ذلك الوقت على مسرح الأحداث فى الاتحاد

السوفييتى ، غير أنه من الصعب جدا أن يعيش المرء فى هذه الدولة ، دون أن يصيبه ما يكدر عليه صفو الحياة ، اذ لا توجد بقعة ينعزل فيها الانسان ، ولا مكان يستطيع المرء أن يهتم فيه بحياته الخاصة دون أن تلحقه شظايا الأحداث .

* * *

القبض على أمى

عندما دخلت بيت الطلبة رقم ٦ ، أقامت أمى فى « زنزانة » صغيرة حقيرة — فلا يستطيع المرء أن يسميها حجرة — كانت فى منزل قديم يقع بالقرب من بوابة « نيكيتسكى » . والحقيقة أن تسميتها « زنزانة » فيه شىء من المبالغة ، اذ هى عبارة عن جزء صغير من دهليز « ممر » مسور بحائط من الخشب ردىء النوع .

اهتدت أمى الى هذا المأوى الحقير ، بعد طول بحث كاد يبعث فيها اليأس ، لذا قبلته ورضيت به . كانت تلتقى بى مرة أو مرتين فى الأسبوع ، نتجول فيها عبر شوارع موسكو ، فكان وقتا جميلا ، فكما كنت معجبا ببيت الطلبة ، كذلك كنت أنتظر بفارغ الصبر لقاء أمى كل مرة ، فقد كان يسرنى رؤيتها والحديث معها .

التقيت بها فى ١٢ أكتوبر ١٩٣٦ م — أى بعد دخولى بيت الطلبة بأسابيع قليلة — وبينما كنا نسير فى هذا اليوم المطير فى شوارع موسكو نأكل حلوى اشتريناها من محل تعودنا أن نشترى منه دائما « حلويات شرقية » عند بوابة « نيكيتسكى » قلت لها : لى رجاء آخر عندك يا أمى !

قالت : وما هو يا بنى ؟

قلت : أنت تعلمين أن أصعب شىء عندى ، هو مادة الرسم الميكانيكى ! ونحن مكلفون بأن نرسم رسما صعبا جدا ، ويجب أن ننتهى منه بعد غد ، ولن أنجح فى رسمه رسما صحيحا مهما بذلت من مجهود .

وعدتنى أمى أن تعطينى الرسم كاملا غدا ، ثم اضطررت الى توديعها حتى لا أتأخر عن الموعد المسموح به خارج بيت الطلبة .

نظرت الى ورائى ، فرأيت أمى ، لازالت تقف فى مكانها تتأبط حقيبتها ، ولوحة الرسم المطلوبة ، وتلوح لى مبتسمة .

وقفت فى اليوم التالى ، أنتظرها فى المكان الذى حددناه للقائنا ،

لم تكن أمى هناك • انتظرت ، مضت عشر دقائق •• ربع ساعة •• نصف ساعة ، فقررت أن أذهب اليها فى البيت ، فى تلك « الزنزانة » الخشبية • ربما تكون مريضة ، هذا ما دار فى رأسى ! دققت الجرس بعصبية ، ففتح لى أحد السكان ، ونظر الى بدهشة ، ثم تركنى أدخل • اخترقت الممر الى أن وصلت الى « الحجرة » ، فوقفت مندهشا أمام الهيكل الخشبى الردىء • ماذا أرى ؟ الباب مغلق ، ومختوم بالشمع الأحمر ، وكذلك الألواح الخشبية مختومة أيضا بالشمع الأحمر •

لم أفهم شيئا أكثر من هذا • وفى هذه اللحظة فتح باب الحجرة المجاورة :

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ أريد أمى ، فهى تسكن هنا •

ـــ لم تعد أمك تسكن هنا •

ـــ كيف هذا ؟

ـــ اختفت •

ـــ كيف ؟ ألم تترك شيئا ؟

ـــ لا •• لم تترك شيئا •

ـــ اختفت فجأة !

ـــ يحتمل أنها ذهبت للقيام بمهمة ، وستعود قريبا ، فعد الى منزلك بهدوء •

رجعت الى بيت الطلبة مهموما ومضطربا ، فقد عشت مدة طويلة فى روسيا تكفينى أن أعلم : ما معنى القيام بمهمة ! فالتكليف الفجائى من مكتب رسمى ، هو قيام بعمل معين فى مكان آخر • ولكن ممن حصلت أمى على هذا الأمر الرسمى ؟ والى أين سافرت ؟ ومتى تعود ؟ دارت هذه الأفكار فى ذهنى عندما وصلت الى بيت الطلبة ، واستولت على عقلى التأويلات ، والاحتمالات : يحتمل أنها تلقت أمرا باعطاء دروس فى اللغة الأجنبية ، لمن ؟ لضباط الجيش ؟ وفى هذه الحالة ربما لا يسمح لها بالكتابة لى عن طبيعة عملها • هدأنى هذا الافتراض فهيأ لى الجو لعمل الرسم الميكانيكى •

مر أسبوع وراء آخر ، وأنا أتردد على مسكن والدتى ، ولكن لم أستطع فى كل مرة الا رمى الشمع الأحمر بنظراتى المتسائلة عن مصير أمى • وكان سكان الحجرة المجاورة يقابلوننى فى بادىء الأمر بوجه غير

عبوس ، ونكن سرعان ما تغيروا ، وقال لى أحدهم بنبرة حادة تقترب من الغضب :

لماذا تعاود المجىء هنا • لقد قلنا لك ان أمك فى مهمة ، وعندما تعود سنخبرك ، فلست فى حاجة الى المجىء هنا •

لم تطأ قدمى هذا المنزل بعدها • وكنت أقابل أصدقاء والدتى ، فلا يخبرونى هم أيضا الا بأنها فى مهمة ، وبدا لى أن لا أحد يعرف أين هى ! قال أحدهم :

لقد سمعت أنها فى « تيفليس » •

قلت : ولكن ، لماذا لم تكتب لى ؟

فأجاب : توجد مهمات رسمية ، لا يستطيع المرء فيها أن يكتب شيئا • هذا ما فهمته ، ولأنى سمعت هذا التفسير مرارا وتكرارا لم أعد أسأل أحد •

لم يمض وقت طويل على اختفاء أمى ، عندما وقعت حوادث أخرى ، عكرت علينا هدوءنا فى بيت الطلبة ، ففى يناير ١٩٣٧ م حوكم « أنصار تروتسكى » ، ونشرت وسائل الاعلام على لسان المدعى العام ، أنها منظمة متآمرة ضد نظام الحكم ، ومن بين زعمائها :

« بياتاكوف » و « رادوك » و « سوكولنكوف » و « سيربيرياكوف » وكنا نعتبرهم جميعا — وكانوا أعضاء بارزين فى الحزب — مثلا عليا للبلشفيين •

أثرت هذه القضية على كل أنشطة الدولة ، فغيرت اتجاهاتها ، فالجريدة الألمانية التى كانت تكتب — وهو صورة طبق الأصل لما ينشر فى برافدا — عن نجاح البناء الاشتراكى ، وتنشر صورا للمصانع الجديدة ، والمزارع الجماعية المثالية ، غيرت اتجاهها ، وتحولت الى مسرح لتوجيه أفظع الشتائم وأشنعها « للجواسيس التروتسكيين » ومن بين الأوصاف التى كانت تكتب بالخط العريض : « المنافقون » « خونة الوطن » « المنتكسون الى الرأسمالية » •

كذلك تحول أسلوب التعليم فى المدرسة ليتناسب مع تيار القضية السياسية التى كانت تشغل الرأى العام ، فانساق مع وسائل الاعلام فى الهجوم على « الخونة » و « أعداء الشعب » ، وامتدح — بل وشجع — محاكمتهم وانزال أشد العقوبات بهم •

أخبرونا أن هؤلاء الذين كانوا الى وقت قريب زعماء الحزب

النموذجيين هم فى الحقيقة جواسيس ، وخونة ، ومنافقون . كانوا على اتصال سرى بألمانيا الهتلرية واليابان ، واستهدفوا من وراء ذلك اعطاء ألمانيا منطقة أوكرانيا ، واعطاء اليابان المنطقة الشرقية السوفييتية ، واعادة الرأسمالية الى الاتحاد السوفييتى .

كان المتهمون — هكذا قالوا لنا — منذ سنوات مخربين ، وخونة ، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من المهارة والحذق بحيث استطاعوا خداع من حولهم . وقد تمكنوا عن طريق تقلدهم مناصب قيادية أن يخربوا خطط الانتاج ، فأشعل تنظيمهم السرى الحرائق فى المصانع ، ووضع المتفجرات هنا ، وهناك ، وارتكبوا أنواعا عديدة من الجرائم : تخريب قطارات السكك الحديدية ، وموت العمال ، والفلاحين بالجراثيم بواسطة مراكز الصحة والوحدات العلاجيـــة للأمراض المعدية ، وفى نفس الوقت كونوا جهازا ارهابيا لاغتيال قادة الحزب والحكومة السوفييتية .

انتهت القضية فى ٣٠ يناير ١٩٣٧ م ، وحكم على « بياتاكوف » و « سيربيرياكوف » وآخرين بالاعـدام ، وعلى « سوكولنكوف » و « رادوك » بالسجن عشر سنوات . ونشرت الصحف صورا لمؤتمرات العمال فى المصانع والمزارع الجماعية ، يرفعون فيها أيديهم ، اشارة الى استحسانهم ، وتأييدهم الأحكام الصادرة على أعداء الشعب ، واندلعت مظاهرات ضخمة تهتف :

« اقتلوا الكلاب الفاشيين » « امسحوا أعداء الشعب من الوجود »

لم نستطع آنذاك أن نقدر أهمية هذه القضية ، فقد كنا — سكان بيت الطلبة — نعيش ، كما لو كنا فى جزيرة يخيم عليها الهدوء والسكينة ، ولم نعلم شيئا عن موجة الاعتقالات الجماعية ، التى نفذها رجال المخابرات فى ذلك الوقت . كنا نذهب الى المدرسة كالعادة ، نحضر الدروس ، ونناقشها ، ونقرأ الكتب ، لكننا لاحظنا التغيير فى درس المجتمع ، ووجهت الينا تحذيرات متعددة — فى تجمعات المدرسة ، وفى بيت الطلبة — من الوقوع فى حبائل الخونة ، وأعداء الشعب ، فيجب علينا أن نبتعد عن أعمالهم الشائنة .

بدأت أكبر موجة اعتقال فى خريف عام ١٩٣٦ ، ولم نشعر بها الا فى أوائل عام ١٩٣٧ م عندما أصبح من المستحيل عدم تسرب أخبارها الينا ، فارتفع من أمامنا الحاجز الذى فصل بيننا وبين ما يجرى فى الدولة .

لم تبتعد موجة الاعتقالات عن مدرسة « كارل ليكنيشت » ، فقد بدأ من أول مارس ١٩٣٧ م اعتقال المدرسين ، فاختفى واحد وراء الآخر • اختفى أولا مدرس اللغة الألمانية وكان يدعى « جرشنيسكى » شيوعى ألمانى تخرج فى مدرسة « كارل ماركس » الواقعة فى حى « كولونيا الجديدة » فى برلين ، جاء الى الاتحاد السوفييتى بعد عام ١٩٣٣ م • ثم تبعه مدرس التاريخ والجغرافيا : « لوشين » وهو أيضا خريج مدرسة « كارل ماركس » السالفة الذكر • وأخيرا قبض على مدرس الرياضة : « كاوفمان » •

لم يقتصر الاعتقال على مدرسى فصلنا فقط — على هذا النحو — بل شمل مدرسى جميع الفصول الأخرى • أنهك التعب المدرسين الذين لم يعتقلوا — وكانوا قلة — ، لأنهم ألزموا بأخذ حصص اخوانهم المعتقلين • ولم يكن مصدر تعبهم كثرة العمل فقط ، بل ظروف الارهاب التى كانوا يعيشون فيها أتلفت أعصابهم أيضا • اذ أدرك كل منهم أن من المحتمل أن يقبض عليه اليوم أو غدا ، ولهذا فقدوا الطمأنينة ، فأدوا دروسهم بعناء ومشقة ، ولم يكن هذا خافيا على التلاميذ •

أثر عليهم خوفهم ، فأوقعهم أحيانا فى أخطاء ، دون أن يدركوا ما يقولون ، فذات مرة — عندما كنا فى حصة المبادىء الدستورية — تحدث المدرس بحماس عن معالم الديمقراطية فى الدستور ، وعن فضائل الوحدة السياسية فى الاتحاد السوفييتى ، وأراد أن يستشهد فى تفسيره بجملة « ستالين » المشهورة :

« ولكن هؤلاء الذين يفكرون فى مباغتة بلدنا ، سيمزقون اربا ، ويقضى على آمالهم وتغرس أنوفهم الخنزيرية (أى التى تشبه أنوف الخنازير) فى حديقة الاتحاد السوفييتى » ••

ولكنه أخطأ فى هذه الجملة بالذات ، فرفع صوته عاليا فى الحجرة قائلا : « ••• وبهذا يقضى على آمالهم ، وتغرس أنوف السوفييت فى حديقة خنازيرنا » •

تهامس التلاميذ ، وانحلت أعصاب الآخرين • وكنت منهم ؛ ثم ماذا ؟ ماذا يحدث بعد الآن ؟

لاحظ المدرس خطأه بعد ثوان ، فاصفر وجهه ، وارتعشت جميع أعضاء جسمه ، فظهر عليه الارتباك الشديد ، حاول بذل كل ما فى وسعه — كمن يعانى من سكرات الموت — للسيطرة على أعصابه حتى انتهت

الحصة • رثينا لحاله ، فقد كنا نعلم أن نهايته فى هذه الغلطة ، لأن من المسلم به أنه يجب أن يقوم نفسه بتبليغ الحزب بهذه الحادثة • اختفى هذا المدرس بعد أيام قليلة ، ولم نره بعدها ، ولم نسمع عنه شيئا اطلاقا •

أدينا الامتحان فى ظل هذا الرعب ، رعب القبض ، والاعتقال ، والتطهير ، جلسنا فى الفصل صباح يوم من أيام شهر يونيو ، كى نؤدى امتحانا تحريريا فى اللغة الألمانية ، وكما هى العادة فى كل امتحان ، فقد استولى الاضطراب علينا عندما دخل المدرس ، ابتدأ بتسجيل الحاضرين ، ثم شرح لنا كيفية الامتحان :

« سأقرأ عليكم نصا من كتاب أحد الكتاب الذين كرسوا جهودهم ضد الفاشـــية ، ألا وهو « جورج بورن » وعليكم أن تكتبوا ما أقرأه بأسلوبكم الخاص • والزمن المحدد هو ثلاث ساعات ، أظن أنه كاف للتفكير والكتابة فى هدوء تام » •

ثم فتح حقيبته ليخرج كتاب « بورن » ، وفجأة انتشر الهمس فى أحد أركان الحجرة ، فرفع المدرس رأسه قائلا : ماذا حدث ؟

وقف أحد التلاميذ وقال :

« أيها الرفيق المدرس ، لقد روى والدى أنه قد تم القبض منذ أيام قليلة على « جورج بورن » بتهمة أنه من أعداء الشعب » •

اسود وجه المدرس وأعاد الكتاب الى الحقيبة ، وفرائصه ترتعد ، وقلب محتوياتها ، وأخرج كتابا آخر ، ثم أعاده الى الحقيبة بسرعة خاطفة ، وفى النهاية أخرج كتابا من تأليف « كيش » ، الذى كان يقيم فى ذلك الوقت فى المكسيك ، يمكن أن يؤخذ منه نص لأنه لم يصبح بعد من أعداء الشعب !

هدأ روع المدرس نوعا ما ، وتمالك أعصابه ، ثم قال :

« لا تؤاخذونى على هذا الخطأ الفادح ، فمن المسلم به أنه لا يجوز لنا أن نرجع الى كتاب أحد المعادين للشعب ، الذى يأخذ الآن جزاء ما اقترف من اثم ، وبدلا من هذا سأقرأ عليكم تقريرا صحفيا كتبه « اجون ارمن كيش » ، وعليكم أن تعيدوا كتابته بأسلوبكم » •

قرأ علينا النص ، فكان صوته يرتعش ، اذ كان خائفا أكثر منا نحن الذين نؤدى الامتحان •

وصلت حركة التطهير الى ذروتها فى أيام الامتحان ، أى فى يونيو

سنة ١٩٣٧ م • ففوجئنا — وفوجىء معنا أيضا كل الشعب السوفييتى — فى أوائل يونيو بحادثة هزت أعصابنا وهى :

اعتدى أحد أساتذة الطب المشهورين فى الاتحاد السوفييتى ، وهو الأستاذ « بليتنوف » ، على المواطنة السوفييتية « ب » اعتداء فاحشا ، وأدانه وكيل النيابة فى هذه القضية • ولأن الصحافة السوفييتية لا تذكر أطلاقا المسائل الجنسية ، وما يتعلق بها من فاحشة وغيرها ، فقد استدعى هذا الأمر دهشة عامة لدرجة أن « برافدا » وصفت ظروف الاعتداء وملابساته ، وأشارت بنوع خاص الى أن الأستاذ عض المواطنة « ب » فى ثدييها مرارا ، مما ألحق بها تشوهات لا تبرأ منها أبدا •

اتبع هذا مباشرة النتائج المعتادة لمثل هذه القضية فى معاهد الطب المختلفة ضد « منتهك الأعراض » و « الشهوانى بليتنوف » وأعلن أنه ستجرى محاكمة علنية ، انتظرها الشعب بفارغ الصبر ، ولكن مضى ما يقرب من عام ولم يسمع شىء عن هذه القضية ، بل حلت محلها أخبار أخرى ، قرأها الناس يوميا فى الجرائد ، وسمعوها فى المنتديات والمجتمعات :

« تزداد المخابرات العامة قوة ، ويكبر سلطانها باستمرار ، ولها من المهارة ما يمكنها من تتبع كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ، فلترتعد فرائص الجواسيس والخونة ، وسفاكى الدماء • ان المخابرات العامة ستثبت مدى قدرتها وكفاءتها » •

نشر هذا بعدها بأيام قليلة — على وجه التحديد فى ١١ يونية سنة ١٩٣٧ م — اكتشاف مؤامرة — مزعومة على ما بدا لى — كانت بزعامة قائد الجيش ، مارشال « توخاتشفسكى » وسبعة جنرالات آخرين من الجيش الأحمر • اتهم هؤلاء — وكانوا يتولون أعلى المناصب فى الجيش ، وهم من الأعضاء القدامى فى الحزب ، ومن الزعماء البارزين فى الحزب والدولة — بأنهم جواسيس لاحدى القوى الأجنبية • وأنهم مارسوا أعمالا تخريبية فى الجيش رغبة فى اضعافه ، وأنهم أرادوا — هكذا ادعوا عليهم — أن يمهدوا السبيل لهزيمة الجيش الأحمر ، كى يمكنوا القوى الاقطاعية والرأسمالية من العودة الى السيطرة على الاتحاد السوفييتى •

تعودنا فى الشهور الأخيرة على أشياء كثيرة ، عن طريق القضايا التى تهدد تهديدا مستمرا — وتطعن بأسلوب لا حياء فيه — من يراد تنحيتهم ، وتصفهم بـ« الأعداء الألداء » و « الخونة » و « أعداء الحزب »

و « أعداء الشعب » و « الجواسيس » و « الانتهازيين » و « الغادرين » و « المخربين » ، اذ دأبت الصحف على التشهير بهم ، وتحذير الشعب من أساليبهم الخادعة ، وطلبت من كل فرد أن يكون يقظا ، يحرس الاشتراكية من أعدائها • غير أن اكتشاف مؤامرة « توخاتشفسكى » المزعومة غطى على ما سبقها من قضايا ، اذ لم يضارعها — فى التهويل بها وتضخيم ما ارتكبه زعماؤها — أى حدث وقع قبلها حتى الآن •

نشرت جريدة برافدا فى ١٢ يونية سنة ١٩٣٧ م حوادث هذه القضية فى خمس صفحات كاملة من صفحاتها الستة • وكانت المرة الوحيدة فى تاريخ الصحافة السوفييتية أن يتصدر كل صفحة من الجريد عنوان بالخط العريض : الجواسيس ، — العملاء الحقراء للفاشية — خونة الوطن : اقتلوهم !

كان هذا عنوان الصفحة الأولى ، أما الصفحة الثانية فعنوانها بالخط العريض :

الجواسيس الذين لطخوا شرف الخدمة العسكرية خونة الوطن والجيش الأحمر : اقتلوهم !

أما الصفحة الثالثة فكان عنوانها :

جواسيس ، أولئك الذين أرادوا تقسيم وطننا ، واعادة قوى الاقطاع والرأسمالية الى الاتحاد السوفييتى : اقتلوهم !

وفى صدر الصفحة الرابعة :

جواسيس ، أولئك الذين مارسوا التخريب ليقضوا على قوة الجيش الأحمر : اقتلوهم !

وفى الصفحة الخامسة :

جواسيس ، أولئك الذين دبروا لهزيمة الجيش الأحمر : اقتلوهم !

كان عنوان المقال الافتتاحى :

للجواسيس ، للجاسوسية ، وخيانة الوطن •

وختم بتلك الكلمة التى تتكرر مئات المرات :

ستثبت المخابرات العامة السوفييتية مدى قدرتها وكفاءتها •

أسرفت الجريدة — على نحو يكاد يتكرر فى كل سطر فيها — فى المطالبة بسرعة الحكم فى هذه القضية ، وهاجمت الخائنين — على حد وصفها — بطريقة مسفهة ، وصبت عليهم اللعنات • وجاءت مطالبة الجماهير بضرورة توقيع أقصى العقوبات على المتهمين متأخرة ، فقد

نشر خبر صغير مختصر فى زاوية أحد أعمدة الجريدة أن « توخاتشفسكى » وزملاءه قد حكم عليهم فى مساء اليوم السابق بالاعدام رميا بالرصاص ونفذ الحكم •

رغم أن هذه الأحداث لم تمسنا مسا مباشرا ، فقد وصل أثرها الى بيت الطلبة أيضا ، ففى مساء اليوم الذى حكم فيه على « توخاتشفسكى » جاء أحد التلاميذ — ولم يكن من مجموعة « الكبار » فعمره كان يتراوح بين ثلاثة عشر وأربعة عشر — مكفهرا ومضطربا وقال لى :

— ماذا أفعل ؟ لقد ارتكبت خطأ كبيرا !

— ماذا فعلت ؟

— كتبت فى امتحان الانشاء فى موضوع الجيش الأحمر ، فرفعت من قدر « توخاتشفسكى » بالذات •

— أكتبت هذا فى ورقة الاجابة ؟

— نعم ، وأسوأ ما فى الأمر أننى ختمت موضوعى بهذه الجملة :

« لقد انتصر الجيش الأحمر فى الحرب الأهلية ، بفضل قيادة « ستالين » و « توخاتشفسكى » ولن يهزم أبدا ما دام هذان الزعيمان يتوليان قيادته » ماذا سيحدث لى ؟

كان الحظ حليفه ، فلم يحدث له شيئا ، وان ظل فترة أسير الخوف ، وشاركه فى هذا كثير من التلاميذ — وعلى الأخص « الكبار » — فقد علت وجوههم فى تلك الأيام سمات القلق والاضطراب ، والخوف مما يأتى به الغد ولم يتحرروا من هذا الكابوس الا عندما وجهت اليهم الدعوة للاجتماع ذات مساء ، وأعلن عليهم خبر ، أدخل عليهم السرور وذلك حين قال المتحدث :

« سنسافر فى هذا الصيف الى القرم للاستجمام »

حدث لى فى نفس المساء حادث ، لم أفهم مغزاه ، اذ اتجه الى أحد المشرفين فى البيت ، ورمقنى بنظرات حادة ، ثم مد الى يده ، وسلم بحرارة ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة ، لم أفهم شيئا اطلاقا من هذه الحركة ، وسألت نفسى : ماذا جرى له ! ولكن سرعان ما تناسيت هذا ، ولم أفكر فيه •

مضى أسبوع ونحن منهمكون فى الاستعداد للسفر ، وقبل الرحيل

بيوم واحد ، جاءنى نفس المشرف مرة أخرى ، ولكنه كان مبتسما فى هذه المرة وقال : « لقد عاد كل شيء الى ما يرام » وربت على كتفى •

فقلت له : « لم أفهم شيئا ! ماذا حدث ؟ »

أجابنى مترددا : كانت مسألة شائكة ، ولكنها وضحت الآن ، لا تطل التفكير فى هذا ، واذهب لتعد حقيبتك ، فنحن مسافرون الى القرم •

نزلنا فى مساكن جميلة ، أقيمت فى منطقة « جورسوف » على شاطىء البحر الأسود ، وقضينا فيها ، أياما جميلة ، اذ سحرتنا المناظر الطبيعية • بنخيلها ، وأزهارها ، وحشائشها ، ومياهها المنعشة ، وأضفت علينا جوا هادئا ، خيل الينا فيه ، أن ما مر بنا من أحداث فى الشهر الماضى ، كان حلما مزعجا ، فاعتقدنا — وتمنينا — أن الأمور ستعود الى حالتها الطبيعية ، وأننا عندما نعود الى موسكو ، سنعيش كما كنا قبل بضعة شهور •

أصابنى المرض بعد ثلاثة أسابيع من وصولنا الى « جورسوف » ، فلزمت الفراش ، وكنت تحت رعاية طبيبة ألمانية ، كانت تتفانى فى خدمتنا • وعندما تحسنت حالتى ، جاءتنى هذه الطبيبة فوقفت عند السرير وقالت :

جاءتك رسالة ، هاهى ذى !

تناولتها ، فقرأتها وأنا مضطرب الأنفاس ، فقد كانت من أمى ، أرسلتها الى بيت الطلبة ، فحولوها الى حيث نقيم فى القرم • قرأت فى المكان المخصص لكتابة عنوان المرسل (L.P. Schor, Tschibiju, Komi ASSR) وتحتها هذه الملاحظة (KRTD) خمسة أعوام •

أدركت الآن ما حدث ، فوقع على هذا الخبر كالصاعقة :

لم تكن أمى فى مهمة ، كما كنت أتصور ، بل قبض عليها ، فأنا أعلم أن حرفى (L.P.) هما اختصار لاسم معسكر العمل ، والحروف (KRTD) اختصار لكلمة : نشاط هدام ضد الثورة •

فهمت الآن أيضا :

لماذا أغلقت الحجرة بالشمع الأحمر !

ولماذا كان جيرانها ينظرون الى نظرة ريبة وشك !

وأن أصدقائنا أوهمونى أنها فى مهمة رسمية حتى لا أنزعج •

بلغ تأنيب الضمير ذروته ، عندما قارنت بين حالتى وبين ما تعانيه

الآن فى معسكرات العمل ! مضى عليها الآن عشرة أشهر فى السجن ، وتعيش تحت ظروف قاسية فى القطب الشمالى ، أما أنا فأقيم فى بيت الطلبة فى الاتحاد السوفييتى ، أتمتع بالكماليات ، وأستجم الآن هنا فى ظل نخيل القرم •

اشتركت معها فى الرحلات الى « سمفروبول » و « ليفاديا » ، و « يالتا » وفى زيارة الأماكن الأثرية ، وفى تسلق الجبال ، فقد كانت صورة أمى ماثلة — فى معظم الأوقات — أمام عينى ، وكنت أفكر مكتئبا فيما حدث لها ، وأسائل نفسى : ترى ! ماذا يفعلون معها فى هذه اللحظة !

لم أخبر أحدا بما أوضحته الرسالة من القبض على أمى ، ونفيها ولكنى كنت متأكدا أن مدير بيت الطلبة ، والمشرفين يعلمون ذلك • وقبل رحيلنا بوقت قصير تذكرت مرة أخرى موقف المشرف الذى لم أفهمه وتساءلت : هل كانت له علاقة ما بالقبض على أمى ؟ حاولت أن أتحدث معه حول هذا الموضوع ، ولكنه رفض ، ولم أفهم موقفه الا بعد مضى عام آخـــر • لم تكن أمى هى الوحيدة — من بين آباء وأمهات المقيمين فى بيت الطلبة — المقبوض عليها ، بل كان هناك عدد يتراوح بين ثمانية ، وعشرة من التلاميذ ، دخل آباؤهم أو أمهاتهم — أو كلاهما — المعتقل • ثم صدر قرار يقضى بأن يغادر كل من اعتقلت المخابرات العامة آباءهم أو أمهاتهم بيت الطلبة ، ويلحقـــوا بأحد بيوت الطلبة التابعة للمخابرات العامة ، وفى نفس اليوم جاءنى المشرف وودعنى دون أن يقول لى شيئا •

ألغى هذا القرار بعد أيام قليلة ، فسمح لنا بالبقاء فى مسكننا ، وجاءنى المشرف — ولكنه كان مسرورا فى هذه المـــرة — وأخبرنى بأن الأمور عادت الى مجراها الطبيعى •

لم أعلم حتى اليوم ، لمن يعود الفضـــل فى انقاذنا ! هل كان الغـــاء القرار بناء على وساطة اللجنة الشيوعية العالمية ؟ على أى حال ، فقد كان الغاؤه وقاية لنا من مصير سىء ، كان ينتظرنا فى بيوت الطلبة ، التابعة للمخابرات العامة ، التى أعدت لاستقبال أبناء المقبوض عليهم • كتب علينا ألا نرى أباءنا سنوات عديدة ، ولكننا فى الوقت نفسه منحنا هبة ، ألا وهى عدم مغادرة مسكننا ، فلدينـــا الآن شىء نركن اليه : بيت الطلبة ، فهو بالنسبة لنا وطن ، وأسرة ، ومكان نحتمى فيه •

ماذا يحدث لو صدر قرار بالغاء هذا البيت وتسريح من فيه ؟ ..

* * *

فى المدرســة الروسية

عدنا من القرم فى النصف الثانى من شهر أغسطس ، وبعد مضى ستة أســابيع ، دعانا — نحن الكبار — ناظر المدرسة الى اجتمــاع خاص فى مكتبه ، ثم وجه الينا الحديث :

« أيها الرفقــاء ! لقد أتممتم دراسة السنة السابعة ، ونريد اليــوم أن نناقش مستقبلكم بصراحة ، فأنتم الآن تجيدون اللغة الروسية ، لذا أعرض عليكم اقتراحا يجب أن تفكروا فيه جيــدا : أليس من الأفضل أن تتركوا مدرسة « ليبكنيشت » ، وتلتحقوا بمدرسة روسية ؟ وطبيعى أن هذا ليس اجبارا . ويمكن أن نتحدث فى هــذا الموضوع مرة أخرى فى الأيام القليلة القادمة » .

وافق فريق منا فى الحال على التحاقه بالمدرسة الروسية ، وتباطأ آخــرون ، وكنت من المتباطئين ، كنت أجيد الروسية ، ولكن لم تبلغ درجة اجادتها اللغة الألمانية ، فلو كان الأمر يتعلق باللغة فقط ، لاخترت البقاء فى المدرسة الألمــانية ، اذ كان واضحا أن اقتراح « سيميونوف » رغم أنه لم يذكر الدوافع التى دفعته الى أن يقترح مثل هذا الاقتراح — له جذور سياسية . ومن المحتمــل أن يكون الآخــرون قد فهموا هذا المعنى أيضا ، لأنهم وافقوا جميعا فى الاجتماع الثانى — الذى عقد بعد يومين فقط — على أن يلتحقوا بالمدرسة الروسية .

التحق — فى أول سبتمبر ١٩٣٧ م — اثنا عشر تلميذا — منا نحن مجموعة الكبار فى بيت الطلبة — بالمدارس الروسية ، ولم يدخلوا جميعا مدرسة واحدة ، بل وزعوا على عدة مدارس . أما المجموعتان الأخريان — « الصغار » و « المتوسطين » — فقد ظللنا « مؤقتا » فى مدرســة « ليبكنيشت » الألمــانية .

دخلت المدرسة رقم ٩٣ الكائنة فى حارة صغيرة بالقرب من ميدان «أربات » . كان مبناها حديثا مثل معظم المدارس فى موسكو ، وأثاثها فاخرا ، فرحب بنا التلاميذ ، والمدرسون ، وأبدوا استعدادهم لمساعدتنا فيما لا نستطيع فهمه فى اللغة الروسية ، ولم نصادف منهم موقفا معاديا لنا .

لم يكن من السهل علينا متابعة الدروس ، رغم أننا كنا نفهم ما يقال باللغة الروسية ، كانت المرحلة الأخيرة فى المدارس — وهى ثلاث سنوات — مقصورة على أولئك الذين يرغبون فى مواصلة الدراسة فى الجامعات والمعاهد العليا • فالمناهج فى هذه المرحلة مزدحمة جدا ، اذ يطلب من التلميذ فى هذه السنوات الثلاث الأخيرة ، تحصيل مواد تكاد تبلغ حد الاعجاز • ولا زلت مقتنعا بأن ما يتعلمه التلميذ فى مدارس الاتحاد السوفييتى لا يقل — ان لم يكن أكثر — عما يتعلمه التلاميذ فى أى مدرسة فى غرب أوربا وأمريكا ، الا أن التلميذ فى الاتحاد السوفييتى لا يعرف الا وجها واحدا من الحياة ، ألا وهو ما تصوره له الأيدلوجية الشيوعية •

لم نتعلم اللغة اللاتينية ، ولا اليونانية — كان يوجد لغة أجنبية واحدة فقط — ولكن المطلوب فى المواد الأخرى — وخاصة فى مواد العلوم الطبيعية — كان كثيرا • فبينما كان معظم المواد فى الفرقة الثامنة يعتبر امتدادا عضويا لما درسناه فى الفرقة السابعة ، وجدت بعض التغييرات فى بعضها ، اذ انقسمت الرياضة الى ثلاث مواد : جبر ، وهندسة ، وحساب المثلثات • أما الطبيعة والكيمياء فامتدت فيها الدراسة كما هما ، وتحولت الجغرافيا الى تفسير لجغرافية الاتحاد السوفييتى الاقتصادية • وفى علم الاحياء درسنا التشريح ووظائف الاعضاء والخلايا الحية فى الانسان •

اقتصرنا فى التاريخ على دراسة التطور التاريخى لشعوب الاتحاد السوفييتى ، وهى دراسة لا تبدأ بأحداث التاريخ الروسى ، بل بدولة « أورارتو » التى قامت فى القرن التاسع حتى القرن السادس قبل الميلاد ، فى المنطقة الموجود فيها الآن الأرمن السوفييت • أعتنى فى حصة التاريخ فى هذا العام — ١٩٣٨/٣٧ الدراسى — بدراسة القيصر ايفان « المرعب » • وكان أسلوب التحليل التاريخى لهذا القيصر ينبىء عن تغير هام ، اذ لم نتوقع اطلاقا أن يصبح هذا القيصر فجأة حاكما تقدميا ، وموحدا لروسيا ، وأن المؤرخين الرجعيين لم ينصفوه ، ولم يعطوه حقه ، بل صوروه بصورة لا تليق به ، فأطلقوا عليه « المرعب » • ثم أبرزت باسهاب انجازاته التقدمية ، فى توحيد المملكة ، وفى تطهير روسيا من الخونة ، وأشير الى ذلك — بنوع خاص — الى « أوبريت

شنينا » التى تتخذ رأس الكلب والمقشة رمزا لها ؛ اذ فسر رأس الكلب بأنه اشارة الى الخونة ، والمقشة تطهر روسيا منهم .

لم ندرس فى الفرقة الثامنة علم الاجتماع ، ولا مادة « علم الدستور » ، واستبدل بذلك مادة التربية العسكرية . وكنا نأخذها مرتين فى الأسبوع .

درسنا — بجانب التدريب العسكرى — هيكل الدفاع المدنى ، واجراءات الحماية من الغارات الجوية ، فسيطر علينا الرعب والخوف من الرسم الميكانى الذى كان يزداد صعوبة كل أسبوع ، اذ كان الاهتمام بهذه المادة شديدا — وهم على حق — لأن كثيرا ممن يجتازون امتحان الفرقة العاشرة (الثانوية العامة) يلتحقون بكليات الهندسة .

كان الاتجاه واضحا فى أنهم يعدوننا للكليات والمعاهد العليا ، اذ وضع لهذا الغرض برنامج اتصال بالجامعة أطلق عليه « أيام الباب المفتوح » وهو عبارة عن دعوة التلاميذ — ابتداء من الفرقة الثامنة — لزيارة كليات مختلفة ، حيث يقابلهم أعضاء هيئة التدريس (أساتذة ، وأساتذة مساعدون ، ومدرسون ، ومعيدون) وممثلو اتحاد الطلبة ، ليشرحوا لهم سير الدراسة فى الكلية ، وطبيعة المواد التى تدرس ، وأسلوب الحياة الجامعية . فسهلت هذه الزيارة على التلاميذ اختيار الكلية التى يريدون الدراسة فيها .

ساعدنا التحاقنا بالمدارس الروسية على التعمق فى هذه اللغة ، فتقدمنا فيها لدرجة أننا بدأنا — نحن الألمانيين — نتحدث بها مع بعضنا حتى ولو لم يكن بيننا أحد من الروس ، وكان ذلك خطوة أولى على طريق اندماجنا فى الحياة الروسية ، ذلك الاندماج الذى بدأ فى عام ١٩٣٧ وقوى يوما بعد يوم .

ثم تلتها الخطوة الثانية فى بداية عام ١٩٣٨م : فقد أغلقت مدرسة « ركارل ليبكنيشت » الألمانية ، لأنها لم تستطع مواصلة العمل بعد القاء القبض على المدرسين وعلى الناظر — ألقى القبض على الناظر « شلاسكو » ، وعلى خليفته أيضا « كرامر » ، فتحول جميع التلاميذ — الألمانيين والنمسويين — الى مدارس روسية .

ازداد تقارب بيتنا — بيت الطلبة رقم ٦ — ببيوت الطلبة الروسيين، فعلى الرغم من استمرار زيارة ممثلى تنظيمات الحزب الشيوعى النمسوى ، وعدم انقطاع القاء المحاضرات عن المقاومة ضد الفاشية فى

ألمـانيا والنمسا ، وعما يجرى من الأحداث فى أسبانيا ، الا أنه يزداد يوما بعد يوم عدد الروس الذين يأتون الينا ليتحدثوا فى قضايا سياسية تتعلق بالاتحاد السوفييتى •

تعلمنا أن ننظر الى المسائل كلها من الزاوية السياسية ، أو على حد تعبيرنا فى معظم الأحيان « من زاوية موقف معين » ، فقد تعودنا أن نبرر كل ما يفعله الاتحاد السوفييتى ، ولو كان هذا التبرير شاذا ، كأن يتعلق بعمل يتنافى مع المبدأ الأساسى لمفهوم الاشتراكية •

ابتعدنا شيئا فشيئا عن أوطاننا الأصـلية ، ففى البداية ، كتب التلاميذ فى بيت الطلبة كثيرا من الخطابات الى أهليهم وأقاربهم فى النمسا وألمانيا ، ثم قلت الى حد كبير ، اذ تضاءل التفكير فى ألمانيا والنمسا ، بينما ازداد الاهتمام بالاتحاد السوفييتى • كان المتحدثون يذكرون فيما سبق الاتحاد السوفييتى فى خطاباتهم على أنه وطننا الثانى ، ثم اختفت كلمة « الثانى » وبدأنا نشعر شيئا فشيئا ، كما لو كان الاتحاد السوفييتى وطننا الحقيقى والأوحد •

اختفت كلمة النمسا وألمـانيا فى أحاديثنا ، فلم تعد تذكر الا نادرا ، فبهتت الذكرى ، وهوت الى وادى النسيان العميق ، اذ صرنا شـبابا سوفييتى الشعور والتفكير ، شبابا ليس عنده شعور وطنى نحو ألمانيا أو النمسا ، بل يميل بتفكيره وشعوره نحو الاتحاد السوفييتى•

وهكذا تحول وجه بيت الأطفال (بيت الطلبة رقم ٦) فى الفترة من ١٩٣٤ الى ١٩٣٨م ، فاتخذ طابعا آخـر ، والحقيقة أنه لم يعد بيت أطفال لأن مجموعة « الصغار » صارت « متوسطة » ومن أطلق عليهم قبلا « متوسطون » أصبحوا « كبارا » ، بينما تجاوز من أطلق عليهم فى المـاضى « كبارا » عهدالطفولة ، فأقاموا احتفالات للرقص فى يومى السبت والأحد ، ولا يمكن أن يفكر أحد من الزائرين أن القاطنين فى هذا البيت أطفال •

كان واجب المشرفين — قبل شهور مضت — ومن يقوم بورديات الليل ينحصر فى مراقبة مسائل الأطفال العادية ، كغسل الأسنان بالفرشاة والمعجون •• وغير ذلك ، ولكن تصادفهم الآن مشاكل أخرى من نوع خاص فقد وقع معظم الغلمان فى بيت الطلبة فى حبائل الحب ، وأحلامه • ولكن !! صادفت أيام شبابنا المتفتح عهدا كئيبا •

* * *

مراقبة التطهير من بيت الطلبة

استمرت حركة الاعتقالات حتى بدا لنا أنها لن تتوقف ، بل زادت بعد عودتنا من القرم فى نهاية أغسطس ١٩٣٧م حتى اكتوى الكل بنارها فى خريف هذا العام .

أصبح مألوفا لى أن أرى عند زيارة الأصدقاء بابا مغلقا بالشمع الأحمر ، أو أسمع أن أسرة بكاملها ألقى القبض عليها ، وشمع مسكنها ، فقد صار مفهوم كلمة « الاعتقال » — الذى كان مخيفا ونادرا وقوعه نسبيا قبل بضع سنوات — شائع الاستعمال ، وكنت أرى فى الطريق الى المدرسة يوميا السيارات ذات اللون الأخضر المخصصة لنقل المعتقلين .

توالت الأنباء — دون انقطاع — عن اعتقال المزيد من قادة الحزب الشيوعى ، الذين قدمتهم لنا وسائل الاعلام من قبل على أنهم نماذج وأمثلة يجب الاقتداء بهم . ولم يختف ليلا مدرسو مدرسة « كارل لبكنيشت » فقط ، بل أيضا محررو « الجريدة المركزية الألمانية » . وكذلك العاملون فى « نادى العمال الأجانب » ، وكنا نسمع يوميا عن حركة اعتقال جديدة بين صفوف المنفيين السياسيين ، ومنهم أعضاء رابطة الدفاع أيضا . لم يخف على أحد حالة الرعب التى سيطرت على حياة المدرسين فى المدرسة ، والمشرفين على بيت الطلبة ، وحتى على أعضاء لجنة الفكر والدعوة فى الحزب الشيوعى ، عندما كانوا يتحدثون فى الاجتماعات التى كانت تعقد فى المدرسة ، أو فى سكن الطلبة .

أطلق على من لم يعتقل اسم « المفضلات » ، ولم يكن حالهم أحسن من حال المعتقلين ، فقد أصيب معظمهم بلوثة نفسية نتيجة وقوعهم تحت تأثير الخوف المستمر ، وكانوا أقرب الى الحيوان الوحشى الهائج من شدة الخوف من حلقة الصياد التى تضيق عليه الخناق شيئا فشيئا منهم الى البشر ، وعجزوا عن الوسيلة الصحيحة التى تنقذهم من هذا الخطر الداهم ، ولكن أى الوسائل يمكن أن تؤدى الى بر النجاة ! تفاوتت آراؤهم فى تحديدها فبدت كما يلى :

— الصمت واجب الآن . فان أمكن الانسان ألا يفتح فمه فليفعل ، وعلى الأخص فيما يمس السياسة ، فلا تبد رأيك اطلاقا ، حتى ولو كنت من المخلصين « للينين » ، الصمت ، والصمت فقط هو النصيحة الذهبية فى هذه الأيام .

— لا يوجد اليوم أشد خطرا على المرء من الصمت ، لأنك بصمتك تشير للمخابرات أنك تحاول اخفاء أمر سرى ، أو تريد عدم اظهار أفكارك المعادية للنظام ، وسوف يقودك هذا الى أن تصبح عندهم من أعداء الشعب ، فالأحسن فى الظروف الراهنة أن تكون نشطا ، ومتحدثا ، وداعيا بكل ما تملك للأفكار التى تنشرها جريدة برافدا •

— لا أحد يدرى ، على من يلقى القبض غدا بتهمة « العداء للشعب » !! لهذا يجب على المرء ألا يلقى التحية على أحد ، والأفضل أن ينعزل ويعيش وحيدا •

— يجب على المرء الآن أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع الناس كلما أمكن ، وأن يتصرف بالضبط كما كان يفعل قبل ذلك ، لا يغير من أسلوبه شيئا ، حتى يظهر أن حركة التطهير لم تؤثر عليه ، اذ ليس أخطر على الانسان من أن يعزل نفسه فى حجرة صغيرة بعيدا عن أعين الناس •

— من أهم الأشياء الآن ، أن ينظم المرء مكتبته ، فكل الكتب التى يحتمل أن يكون فيها شىء لا يتفق مع الاتجاه السياسى ، يجب حرقها فورا •

— لا يوجد فى أشهر حركة التطهير هذه أخطر من أن يضيع المرء ورقة فى النار ، لأن الجيران يلاحظون هذا بسرعة ، فيؤول هذا العمل ، بأن وثائق أحرقت ، فيتهم المرء تلقائيا بالخيانة ، فوجود عشرات الكتب المعادية فى المكتبة أهون من القاء ورقة فى النار •

خرج المرء من هذه الآراء صفر اليدين ، لا يدرى ماذا يفعل ، ولم يختلف حال من أخذ برأى عمن أخذ بضده ، بل تساوت ظروف كل الناس جميعا ، من التزم الصمت فى غدوه ورواحه ، فصار أبكم مثل السمك ، بمن رفع صوته فى مناسبة ، وغير مناسبة بترديد ما نشرته « برافدا » فى مقالها الافتتاحى • ووقع فى يد المخابرات العامة أولئك الذين انسحبوا من الميدان الاجتماعى ، واختفوا بسرعة ، بعد بدء حركة التطهير ، عملا بمبدأ الانعزال ، كما وقع فى أيديهم أيضا من التزم بأسلوبه السابق فى الحياة ، رغبة فى ايهام من يراقبه بأن حركة التطهير لم تؤثر عليه • وألقى القبض على من أحرق نصف كتبه — حتى الكتب التى لا غبار عليها — كماألقى القبض على الآخرين الذين لم يلقوا ورقة واحدة فى النار ، خوفا من اتهامهم بأنهم أحرقوا الوثائق • وجملة

القول ، لم يكن هناك تذكرة طبية « روشتة » للأبرياء ، تحدد لهم المسار الصحيح ، حتى يثبتوا للمخابرات بأنهم أبرياء حقا .

انتشرت شائعات فى بيت الطلبة مفادها أن ٩٩ فى المائة من المقبوض عليهم لم يرتكبوا اثما ، ولم يفعلوا شيئا ضد السلطة السوفييتية ولو ترك التحقيق يسير سيرا طبيعيا ، ما اعترف أحد بشىء مما نسب اليه . وسمعت آنذاك أن معظم القضايا استندت على أشياء تافهة ، لأن المخابرات العامة كانت تبحث عن أى شىء لتبرير القبض — ولو صوريا — كأن يتلقى المرء خطابا من الخارج ، أو يجلس فى المقهى الوطنى ويتصادف فى نفس الوقت أن يكون هناك أحد أعضاء السلك الدبلوماسى الأجنبى ، حتى ولو كان على منضدة بعيدة عنه . أتخذ مثل هذه الأمور التى لا وزن لها أساسا ينبنى عليه اتهام متخيل بالاشتراك فى مؤامرة ضد « ستالين » .

كان موضوع حديث الذين لم يقبض عليهم بعد هو : هل ينبغى أن يمتنع المرء — باصرار — عن الاعتراف بجريمة ملفقة ، ويعارض التوقيع على أقوال لا أساس لها من الصحة ، أو يساعد المحقق فى حبك مثل هذه القصة ، ويوقع عليها حتى يظهر له — على الأقل — استعداده للتعاون معه .

اختلفت آراء من أعرفهم :

— أنا لم أفعل شيئا اطلاقا ضد السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، ولذا — لو قبض على — لا أفكر فى الاعتراف بجريمة لم أرتكبها ، لن أقول شيئا ، ولن أوقع على شىء .

— ليس للقبض أدنى علاقة بمذنب أو غير مذنب ، فالامتناع عن القول لا يفيد أحدا ، بل بالعكس ، يكون سببا فى توقيع عقوبة قاسية — هكذا قال أحد المعارضين للرأى الأول — ، ولهذا سوف أفكر من الآن فى قصة يمكن تصديقها ، لأحكيها للمخابرات العامة — عندما أعتقل — كى أحصل على أخف عقوبة .

لم يكن قد مضى على هذا الحديث وقت طويل ، حين قابلت أحد الأصدقاء الذين يتمتعون بذكاء حاد ، فأخبرنى بأنه رأى أحد الذين قبضت عليهم المخابرات العامة — ولم يذكر اسمه — ثم أفرجت عنه ، وعلق على ذلك بقوله :

— أنا أعتقد أنى توصلت الى الحل ، وهو أنه يجب أن يفكر الانسان قبلها فى قصة ، هراء ، فى هراء ، وينظم أحداثها ، بحيث تقنع المحقق أنها اعتراف مقبول ، وفى الوقت نفسه تتضمن هذيانا ، بحيث يبدو عدم احتمال وقوعها عند التدقيق فيها .

— كيف تبدو هذه الاعترافات ؟

— لم أفكر فى قصة لنفسى ، اذ لم تزل بعد خواطر ، ولكن ذكر صديق لى بعض أمثلة فقد اعترف كيميائى أمام المحقق ، بأنه باع للمخابرات النازية معادلة كيميائية هامة . فسأله المحقق باهتمام عن نوعية المعادلة ، فكتب له : هـ٢ ، س و٤ . وهنا اعتبر الاعتراف «هذيانا» .

« ألا تعرف ! لقد حكى لى أحد الأصدقاء ، أن كثيرا من أفراد جهاز المخابرات العامة المثقفين اعتقل ، ولهذا تتألف — فى غالب الأحيان — هيئة التحقيق من شباب الفلاحين ، الذين لا خبرة لهم . أتعرف قصة ميناء لينينجراد ؟

وحين أجبت بالنفى ، استمر فى حديثه :

« اعترف أحد المعتقلين ، بأنه اشترك فى مؤامرة خطيرة ضد الأسطول الحربى وذلك بأن اتفق مع آخرين بأن يقذفوه بالحجارة فى ميناء « كرون شتات » كى يتلفوا السفن الحربية ، والميناء الراسية فيه .

فقلت متعجبا : وماذا حدث له ؟

قال : حكم عليه بالسجن ثمانية أعوام ، ولو لم يعترف لحكم عليه بعشرة ، أو اثنتى عشر . لكنه تأكد أنه عند مراجعة الأحكام كلها — أى التى صدرت من هذه الدائرة — سوف يبرأ .

انقلبت موازين العقل ، واختلت قواعد المنطق ازاء هذه الأحداث ، اذ من المعروف أن الناس الذين يعيشون فى ظل الديكتاتورية ، ويقومون بنشاط ضدها ، يحاولون بشتى الطرق انكار هذا أمام المحقق — عندما يساقون بتهمة عدم الولاء للسلطة الحاكمة — ويسلكون كل سبيل يبرهن على أنهم برآء من هذه التهمة ، حتى لا يقع عليهم العقاب الصارم ، ولكن فى الاتحاد السوفييتى يفكر المرء فى خلق قصة طويلة خيالية تدينه ، يقولها أمام المحقق اذا اعتقل ، على الرغم من أنه لم يرتكب شيئا ضد نظام الحكم .

انتشرت الشائعات آنذاك ، كما هو الحال دائما فى مثل هذه الظروف ، فتهامس الناس — متفائلين — بأن « يشوف » سيعزل من

منصبه قريبا ، وانتشرت شائعة أخرى فى شهر أكتوبر تقول : سيصدر عفو كبير فى ٧ نوفمبر ، بمناسبة مرور عشرين سنة على قيام الثورة فسوف يفرج عن جميع المعتقلين .

جاء يوم ٧ نوفمبر ، ولم يصدر عفو ، ولكن أفرج عن بعض مئات من المجرمين الذين لا علاقة لهم بالمحكوم عليهم سياسيا فى حركة التطهير ، كذلك لم يعزل « يشوف » من رئاسة جهاز المخابرات ، بل تلاشت هذه الشائعات ، فى ظل الثناء عليه ، والتمجيد به .

لم تختف الشائعات التى تحدثت عن مارشال « بلوشر » الذى كان يتولى قيادة المنطقة الشرقية . كنا قد سمعنا عنه فيما سبق أنه كان يتردد فى العشرينات على الصين ، وعمل مع « صن يات صن » القائد السابق للثورة الصينية ، وعندما أنشئت رتبة « المارشالية » كان هو واحدا من أول خمسة حصلوا عليها ، ثم تولى قيادة المنطقة المعروفة باسم « المنطقة العسكرية لاقليم الشرق الأقصى » ، وهو مركز هام . كان أحد أعضاء المحكمة التى أصدرت الحكم بالاعدام على المارشال « توخاتشفسكى » فى يونيو سنة ١٩٣٧م — هكذا يتهامس الناس الآن — ، ولكنه عاد الى الشرق الأقصى بسرعة . وبعد انتشار هذه الشائعة ، تلتها أخرى فقد قال لى أحد الأصدقاء :

— ان المارشال « بلوشر » غير راض على ما تقوم به المخابرات ، ولذا لم تمتد حركة التطهير الى الشرق الأقصى .

— ليس هناك اعتقال اطلاقا .

— يوجد اعتقال ، ولكنه فى حدود الظروف العادية ، فهو لم يأخذ الصورة التى نشاهدها نحن الآن هنا .

— ولكن ، هل يمكن هذا ؟

— ولم لا يكون ذلك ممكنا ؟ فهو — أى « بلوشر » يملك السلطة العليا هناك ، ولا يسمع بهذا فى منطقته ... آه !! ليت المرء يستطيع السفر الى « فلاديفوستك » .

وتألقت عيناه لورود هذه الفكرة — ... ولكنى أعتقد ، أن الأمر ينكشف قبل الرحيل بلحظة ، ويلقى القبض عليه .

حكيت هذه الشائعة بأسلوب جديد ، وأضيفت اليها أشياء أخرى ؛ قررت المخابرات العامة ، قبل بضعة أيام « القاء القبض على المارشال « بلوشر » الخارج على الطاعة ، فسافر قطار خاص ، ملىء

برجالها لهذا الغرض ، وبعد مجاوزتهم حدود منطقة الشرق الأقصى بمسافة قصيرة ، أحيط القطار بقوات المارشال « بلوشر » الخاصة ، يعززها سلاح المدفعية ، فاضطر رجال المخابرات العامة الى التسليم ، فاعتقلوا جميعا ، وهم الآن فى سجن « فلاديفوستك » • ثم يعقب الراوى بهذه الكلمة :

(دا ولد عظيم ! انه المارشال بلوشر) •

ظننت آنذاك — ولم يصل هذا الظن الى اعتقاد الا اليوم — أن هذه الشائعة ، كانت حلما من أحلام اليقظة التى تسيطر على أعصاب الناس ، وكان آخر شعاع من الأمل ، فى ظروف اليأس ، والقنوط • ولكن تلاشت أيضا هذه الشائعة ، حين تحدث الناس أن المارشال « بلوشر » قد اعتقل ، واختفى كأن الأرض انشقت وابتلعته ، اذ لم يعد يذكر فى صحافة الاتحاد السوفييتى ، ولا فى اجتماعات الحزب •

استمرت حركة الاعتقالات دون توقف ، واستسلم الناس لقضائهم ، وقدرهم كما لو كان ذلك من الكوارث الطبيعية ، التى ليس فى الامكان تغييرها • وأكثر من هذا ، فقد تبادلوا فى هذا الوقت العصيب — ربما لأنهم رأوا أنه لا يمكن تجنب ما يقع ، مهما فعل المرء — الدعابات « النكات » :

تقابل اثنان — يدعى أحدهما « بول » والثانى « ايفان » من سكان موسكو فى شارع « جوركى » :

أ — كيف الحال يا « بول » ؟

ب — ماذا تتوقع أن يكون يا « ايفان » ! الحال واقف كما فى الأتوبيس •

أ — كما فى الأتوبيس ؟؟

ب — نعم ، كما فى الأتوبيس ، واحد فقط جالس ، والآخرون يرتعدون •

كانت دعابة الساعة الرابعة صباحا منتشرة انتشارا واسعا ، وفى اسمها اشارة الى حركة الاعتقالات التى تتم غالبا فى هذا الوقت :

فى تمام الساعة الرابعة صباحا دق جرس أحد الشقق حيث يسكن خمس أسر ، فنهضوا كلهم مفزوعين من الفراش ، ولكن لم يجرؤ أحد أن يفتح الباب ، اذ وقفوا جميعا ، كل وراء باب حجرته ترتعد فرائصه ، وفقدوا السيطرة على أعصابهم •

ثم اشتد دق الجرس ، فتمالك أحدهم نفسه ، وفتح باب الشقة ، وسمعه باقى السكان يتكلم مع رجل عند الباب ، ولكنهم لم يفهموا الحديث ، وعندما لاحظ أنهم يستعجلونه الخبر التفت وراءه الى أحد الساكنين الذى لا زالت فرائصه ترتعد وقال له :

هدىء أعصابك ، فلم يحدث شىء اطلاقا .

(ما فيش حاجة غير أن البيت يحترق) .

* * *

الشـــكوك الأولى

لم أكن الوحيد فى بيت الطلبة الذى اعتقلت أمه ، فقد أخبـــر تلاميذ آخـــرون عن طريق الرسائل ، بأن آباءهم أو أمهاتهم اعتقلوا أيضـــا . انفكت عقدة الألسنة شيئا فشيئا ، فبدأ يعترف واحد بعـــد الآخـــر بأن أباه ، أو أمه ، ـــ أو كلاهما ـــ اعتقل .

ومن الغريب أننا كنا نتصرف ازاء هذه الظاهرة بطريقة متشابهة : فقد عرف كل منا ، منذ وقت بعيد ، أن أباه ، أو أمه اعتقل بدون ذنب جناه ، ولكننا طبعنا بالطابع السوفييتى فى التربية ، لدرجة أننا لم نتأثر فى اصدار أحكامنا على الأحداث ، بما يلحقنا شخصيا ـــ حتى ولو أصابت آباءنا ـــ رغم تأكدنا من براءتهم .

لم يتأثر أحد منا ـــ وكنا عشرة اعتقل أحب الناس اليهم ـــ بما أصابه شخصيا من تعسف السلطات تأثرا يحوله الى معارضة النظام الحاكم . بل كنا نبتعد تلقائيا عن الأفكار التى تصـــور لنا ، أن حركة الاعتقالات الواسعة التى وقعت فى الفترة من ١٩٣٦ ـــ ١٩٣٨م تتعارض بطريق مباشر مع مبادئنا الاشتراكية ، ونحاول دائما ـــ آنذاك ـــ أن نبرر هذا العمل بأنه يتعلق فى حد ذاته بأسلوب اتخاذ اجراءات حتمية وهامة .

جلسنا ذات مساء معا ، فى بيت الطلبة نتجاذب أطراف الحديث ، وكانت معنا فتاة ، اعتقلت المخابرات العامة أباها ، وحكم عليه بعشر سنوات . بدأت الفتاة حديثها بقولها :

« أنا أعتقد أن المرء يمكنه شرح هذه المسألة بمثال : فلنتصور أن واحدا منا معه تفاحة واحدة ، وهو معتز بها لأنها الوحيدة ! ولكن يوجد فى هذه التفاحة جزء فاسد ، أو مسمم ، فاذا أراد انقاذ التفاحة ،

فهو مضطر الى قطع الجزء الفاسد ، أو المسمم ، كى يحتفظ بالباقى سليما • ولكى يتأكد من أن كل الأجزاء الفاسدة قد أبعدت ، فلابد من قطع بعض الأجزاء السليمة أيضا ، وربما ينطبق مثل هذا على حركة التطهير » •

وافقها تلميذ آخر وقال :

« من المؤكد أنه يوجد فى الاتحاد السوفييتى عدد من الجواسيس ، والعملاء ، والخونة ، وربما تعلم السلطات السوفييتية ذلك ، ولكنها لا تدرى بالضبط ، أين ؟ ومن ؟ • ولأجل أن تؤمن نفسها ، وتنقذ الدولة السوفييتية ، اضطرت — سواء كان ذلك محمودا أو مذموما — الى اعتقال بعض الأبرياء ، وهذا بلا شك ، يؤلم كثيرا من الأفراد ، ولكن لا ينظر اليه من ناحية العدالة ، بل يدور الأمر حول انقاذ الدولة الاشتراكية الوحيدة فى العالم !! » •

وقال الثالث :

« تتعلق المسألة أولا وأخيرا بقضية تاريخية ، لقد قرأت بعض الكتب عن الثورة الفرنسية ، وعلى الأخص ما كتب عن ديكتاتورية يعقوب(١) ، فقد وجد آنذاك قضايا ، وأحكاما بالاعدام ، ربما كانت — اذا نظرنا اليها من الناحية القانونية — غير سليمة ، ولكنها على الرغم من هذا أدت الى انتصار الثورة » •ولكنه — أى التلميذ — اصطدم بمعارضة حيث وجه اليه الحديث :

« هذا مثال خطير جدا ، ألم تضيق الديكتاتورية اليعقوبية الخناق على نفسها بقضاياها ، وعنفها الثورى ، فجرها الى نهايتها — أرادت أم لم ترد — ، مما ساعد على انتصار الثورة المضادة !! » •

استمرت المناقشات وقتا طويلا ، تتأرجح ذات اليمين ، وذات الشمال ، والكل يحاول توضيح حركة التطهير من « الناحية التاريخية » ، اذ كانت معلومات مجموعة « الكبار » فى بيت الطلبة واسعة ، لأنهم قرأوا كثيرا من الكتب ، وخاصة تلك التى كانت تعالج ظاهرة الديكتاتورية اليعقوبية فى فرنسا ، فقد كنا مهتمين بهذه الناحية اهتماما كبيرا ، لدرجة أنه كان يطلق علينا من باب الدعابة « جمعية عام ١٧٩٣م » •

---

(١) سياسى فرنسى ، كان عضوا بارزا فى الجمعية الثورية الفرنسية التى تكونت عام ١٧٩٣ م والتى حلت فى ١٧٩٤/١١/١١ م (م • شامة)

كنت أتجول فى المساء مع أصدقائى — وغالبا ما كنا اثنين أو ثلاثة — على الشاطىء فى موسكو ، وكان الحديث يدور بحماس حول مشاكل الثورة الفرنسية ، ولكن لم توصلنا مناقشتنا الى نتيجة .

لا يستطيع الانسان الغربى أن يتصور صعوبة مناقشاتنا ، فقد كنا نعجز عن مواصلتها ، لأننا لا نقرأ سوى ما يكتب فى الصحافة عن قضايا الاتحاد السوفييتى ، لم نسمع صوتا واحدا معارضا ، بل لم نقرأ مرة واحدة ملاحظة نقد ، فلا نقرأ من الجرائد الا « برافدا » ، ولا من الكتب الا تلك التى تسير مع الخط الاشتراكى السوفييتى — وعلى هذا الأساس سمحوا بدخولها — وليس لدينا امكانية سماع الاذاعات الأجنبية ، حيث يسمع المرء تحليلات ، وآراء حول هذا الموضوع ، ولم نعلم أن كل الجرائد السيارة فى الخارج مهتمة بالقضاء ، وبالاعتقال الجماعى داخل الاتحاد السوفييتى ، وأن كثيرا من الكتب عالجت هذه الظاهرة ، وحللت النظريات المختلفة لهذه القضية . كنا ندور فى أفكارنا ، ومناقشاتنا حول أنفسنا ، وعلاوة على هذا ، لم نتكلم — حتى فى جلساتنا الخاصة التى لا تضم غير الأصدقاء — بصراحة ، بل أخذت أحاديثنا — بدون ارادة — طابع الرمز ، والاشارة .

حاولنا مرارا وتكرارا تبرير حركة التطهير حتى نحافظ على نظرتنا المثالية ، واعتقادنا فى الاتحاد السوفييتى ، على أنه البلد الاشتراكى الوحيد . ربما — هكذا كنا نقول لأنفسنا — كانت هناك أسباب لا نعرفها حتمت على السلطة ، اجراء هذه المحاكمات ، وأجبرتها على تنفيذ تلك الاعتقالات الجماعية ، ويحتمل أن يكون المتهمون التزموا السلبية ، فلم يكونوا خونة ، ولا جواسيس ، بل أعاقوا « بدون قصد » تطور الاشتراكية .

ألم يتحدث « ماركس » نفسه عن القوة ، فوصفها بأنها العامل المساعد على ميلاد مجتمع جديد ؟ أليس ممكنا . أن بعض المقبوض عليهم كانوا حقيقة جواسيس ، وأنه يجب — طالما لم يكن هناك تقارير مضبوطة — أن تطهر كل الوزارات والمصالح ؟

وأخيرا ، ألم يتعلق الأمر بحماية الدولة الاشتراكية الوحيدة فى العالم ؟

كان بعضنا ينظر الى هذه الأحداث كحتمية تاريخية ، ربما

اقتضتها أسباب ضرورية لا نعرفها ، ولأهميتها البالغة لا يجوز لأحد من المسئولين كشف النقاب عنها واذاعتها •

وقع فى يدى — عن طريق الصدفة — فى ذلك الوقت الكتاب الذى هز العالم وقت نشره : « عشرة أيام » • ألفه الشيوعى الأمريكى : « جون ريد » ، وصف فيه أحداث ثورة نوفمبر ١٩١٧م التى شاهدها بنفسه فى « بتروجراد » (لينينجراد) • لاحظت متعجبا أنه لم يذكر فى هذا الكتاب اسم « ستالين » اطلاقا ، فى حين أنه ذكر كل أولئك الذين وصفوا فى هذه القضية بـ « الجواسيس » و « العملاء » على أنهم من قادة الثورة •

ثم قارنت ذلك مرة أخرى ، بما نشر فى الجرائد حول القضية •• لا !! لا يمكن أن يكون هذا حقيقة •• لم يكن ممكنا عندى أن نفس الشيوعيين الذين قاموا بثورة أكتوبر ، واحتلوا مراكز القيادة فى الحزب منذ عام ١٩١٧م ، وقادوا الطبقة العاملة فى روسيا الى الانتصار على البورجوازيين ، والعملاء الأجانب ، وأشرفوا فى مراكزهم العليا على بناء الاشتراكية ، ليس من الممكن أن يقدم هؤلاء الآن ، على أنهم عملاء الاستعمار ، وجواسيس للقوى الأجنبية منذ العشرينات •

كلما طالت حركة الاعتقالات ، ازداد شكى فى دوافعها ، وتضاءلت ثقتى فى سلامة اجراءاتها • وكنت كل مساء أتأمل — وأفكر — فى الأحداث الجارية ، وأحاول البحث عن تفسير لها • أيقظتنى حركة التطهير ، فأصبحت أنظر الى بعض الأحداث نظرة انتقادية ، واهتزت عقيدتى بعض الشىء ، فهدأ حماسى ، ولكنها لم تكن كافية فى دفعى الى الكفر بالنظام الاشتراكى ، لأنها الشكوك الأولى ، ولم أكفر بنظام « ستالين » الا بعذها بعشر سنوات •

* * *

الاعتقال فى بيت الطلبة

كنا ذات يوم ربيعى جميل — كان فى مارس ١٩٣٨ م — مجموعة صغيرة ، اندمجت فى حديث شيق ، عقب تناول الغداء ، فبقينا فى صالة الطعام حتى خرج الجميع • وعندما تركنا الصالة مخترقين الردهة ، انفتح الباب الكبير ، ودخل منه رجلان بملابس مدنية ، ونزلوا السلم

الصغير بخطوات بطيئة • مال أحد الزملاء الى ، وأسر فى أذنى : رجال المخابرات !! ولم أكن محتاجا لهذه الاشارة ، فقد عرفتهم من أول نظرة •

فتح باب صالة المذاكرة لحظة دخولهم ، ودلف منه المشرف النمساوى « كارل زهتتر » — كان عضوا فى رابطة الدفاع الشيوعية فى النمسا — وبصحبته تلميذ الى الردهة . فرأيا رجال المخابرات أيضا ، وسمعنا التلميذ يقول له مداعبا : آه !! احترس يا « كارل » فسيأخذوك ، فأجابه « كارل » : لا مكان للمداعبة فى مثل هذه الأشياء ! أنت تعلم بالتأكيد ، أن السلطة السوفييتية لا تلقى القبض على برىء ، وحاول أن يضغط على مخارج الحروف ، حتى لا تبدو مهتزة • توجه اليه رجلا المخابرات ، وقالا له : نحن نبحث عن « كارل زهتتر » فأجابهم بالروسية بصوت خافت ومرتعش : أنا كارل زهتتر ، فقالا له : « أنت مقبوض عليك بأمر من جهاز المخابرات العامة » •

لم يفتح « كارل » فمه ، وبدون أن يلتفت سار مع الرجلين الى الباب المؤدى الى الشارع ، ثم سمعنا صوت محرك سيارة ، ثم انطلقت •

لو وقع هذا الحادث قبل بضعة أشهر ، لانفجرت بسببه موجات من المناقشة الحامية ، والأحاديث المستمرة التى لا تنقطع ، ولكنه الآن — فى بداية عام ١٩٣٨ م — لم يؤبه له ، حتى لم نعرف شيئا من المدير ، يزيح النقاب عن مسألة اعتقال « كارل زهتتر » ، بل سكت عنه ، ولم يذكر اسمه اطلاقا • والنتيجة الوحيدة التى تلت هذا الحادث ، هى أن البعض أخذ حذره ، فلم يتكلم بالصراحة التى كان يتحدث أو يناقش بها من قبل •

وقعت بعد أيام قليلة مشادة بين أكبر اثنين من التلاميذ فى عنبر النوم ، كانا يبلغان السابعة عشرة من العمر • قال أحد التلاميذ وهو يدخل عنبر النوم :

« هل سمعتم أن السيد / فلان قد قبض عليه ؟ هو ذلك الرجل الذى كنا نراه فى نادى العمال الأجانب • وحينئذ نهض أحد التلميذين بسرعة ، وذهب الى صالة المذاكرة ، ثم عاد وفى يده « نوتة » • فقال له زميله « رولف جايسلر » : ماذا تفعل ؟ •

أجابه : سترى حالا ماذا أفعل ! وأخذ قلما وشطب فى « نوتته » على اسم وعنوان الرجل الذى أخبر القادم بأنه اعتقل ، وظل يسطر عليه خطوطا حتى أصبح من المستحيل معرفته ، ثم تفحص الورقة ،

ولكنه لم يكن مطمئنا . فأحضر شفرة حلاقة وقطع الورقة كلها وقال، مبررا تصرفه : يجب على المرء أن يأخذ حذره .

فضحك « رولف » ضحكة استهزاء وقال :

أنت ضعيف الشخصية ، وجبان ، هل تسمى هذا شيوعيا ، أنا أحتقر كل حقير جبان مثلك . لن تكون فى يوم ما مكافحا اطلاقا .

فأجابه : ليس هذا جبنا اطلاقا ، بل هو مما يجب عمله لتكون حذرا ومتيقظا .

ثم اندلعت مشادة بين « رولف جايسلر » وبين ذلك التلميذ الخائف وفى النهاية صاح هذا التلميذ فى وجه صديقى « رولف » :

انتظر ! سوف نرى أينا سيقبض عليه أولا ، أنا أم أنت ؟ .

ثم رحنا فى النوم بعد هذا الحديث الذى لم يحدث مثله من قبل فى بيت الطلبة ، وفى الصباح الباكر — حوالى الساعة الرابعة — استيقظنا جميعا على دق شديد على باب عنبر النوم ، ثم دخل رجلان يرتديان الملابس المدنية الى العنبر ، كما لو كانا من أصحاب البيت ، ووراءهما المشرفة الليلية ، يبدو على وجهها الخوف والارتباك ، ثم نادى أحد الرجلين بصوت عال : « أين رولف جايسلر » ؟

فأجاب « رولف » وهو فى سكرات النوم :

نعم ، أنا هنا ، وعندما رأى الرجلين ، أعاد اجابته باللغة الروسية ، ثم سمعت الجملة المعهودة للمرة الثانية :

« أنت مقبوض عليك بأمر من جهاز المخابرات العامة » وأردف صاحب الصوت قائلا : أين حاجتك ؟

أشار « رولف » الى صندوق بجوار السرير ، فسأله رجل المخابرات : هل عندك سلاح ؟

فتدخلت المشرفة : ولكن أيها الرفيق ، هذا بيت يسكنه تلاميذ !

فرد عليها رجل المخابرات :

لم نسألك ! ثم التفت الى « رولف » : هل عندك سلاح ؟

فأجاب « رولف » : لا ! .

فقال رجل المخابرات : حسنا ! احزم أشياءك ، ولكن ضع أولا كل ما عندك من كتب ، وكراسات وأوراق على هذه المنضدة !

طار النوم فى هذه اللحظة من أعيننا ، وانتبهت أعصابنا ، فسرى الرعب فى كل خلية فينا ، عندما سمعنا الجملة الأخيرة ، لأننا لعبنا

بالأمس — فنحن لا زلنا أطفالا — لعبة التصوير ، والتلوين بالأوراق ، وكان أحدنا عبقريا فى فن الكتابة والزخرفة ، فرسم لنا خاتما من الشمع ، بداخله علامة بريد خيالية ، وصورة عملة نقدية خيالية أيضا ثم عمل أوراق كثيرة للعب ..

وضع « رولف » كل هذا على المنضدة ، وفى هذه اللحظة فكر كل منا ، أن رجال المخابرات لن يهتموا اطلاقا بأوراق اللعب هذه ، لأنها لا قيمة لها ، ولا يمكن أن يفكروا فى أنهم اكتشفوا رموزا لجهاز سرى .

وقع ما لم نتوقعه ، فعندما وضع « رولف » الخاتم وكروت اللعب على المنضدة ، انتبه رجلا المخابرات ، وبدا على وجهيهما ما يدل على أنهما فهما أن هذه الأشياء — التى لعب بها الأطفال أمس — تدل على أسرار خطيرة .

انتهى « رولف » من ارتداء ملابسه ، ثم وضع بعض الملابس الداخلية فى حقيبته الصغيرة ، فقال له أحد الرجلين :

يجب أن توقع على كل ورقة قبل أن تذهب .

وقع « رولف جايسلر » على كل خطاباته ، وكراريسه ، ونوته ، ثم جاء الدور على ورق اللعب ، فحاول أحد التلاميذ أن يبين أن هذه أوراق لعب : أيها الرفيق ! هذه ....

فالتفت اليه أحد الرجلين قائلا :

لم نسألك .. لا يفتح أحد هنا فمه . ثم انتهت الاجراءات بعد دقائق ، واقتيد « رولف » ، ومرة أخرى سمعنا — بعد أن أغلق الباب — صوت محرك سيارة ، ثم انطلقت .

اجتاحت البلد فى هذه الآونة — أى عندما امتدت حركة الاعتقالات الى بيت الطلبة — من جديد حمى قضية كبرى ، وكانت هذه المرة ضد ما أطلق عليه « كتلة المناوئين للاتحاد السوفييتى من اليمينيين ، والمتظاهرين بالشيوعية من أنصار تروتسكى » . فاقت هذه القضية كل ما سبقها ، سواء فى عدد المتهمين ، أو فى كثرة التهم ، الموجهة اليهم .

كان على رأس المتهمين المخطط الادارى المشهور للحزب « نيكولاى بوخارين » ، وهو عضو اللجنة المركزية ، والمكتب السياسى منذ عام ١٩١٧ ، ورئيس تحرير جريدة برافدا . كذلك وقف معه على رأس المتهمين البلشفى القديم « ريكوف » كان المسئول عن الشئون الداخلية ، فى أول حكومة عسكرية بعد ثورة نوفمبر عام ١٩١٧ ، ثم تولى رئاسة

الهيئة التنفيذية الشعبية فى الاتحاد السوفييتى بعد موت « لينين » ، وظل سنوات طويلة عضوا للجنة العليا لاتحاد الأحزاب الشيوعية العالمية • بدأ نجم « ريكوف » يأفل بعد أن تولى « ستالين » السلطة ، اذ أبعد تدريجيا عن المناصب الهامة حتى وصل الى رئاسة شئون البريد والتلغراف ، ثم أعفى من هذا المنصب فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ م ، دون ابداء أى سبب ، ولم يتسمع عنه أحد شيئا منذ ذلك الحين •

ان من الأمور التى يعجز العقل عن إدراكها أن يجلس فى قفص الاتهام « ياجودا » الذى تولى منصب وزير الداخلية ، ورئيس المخابرات العامة سنوات طويلة ، وكان رئيسا لمجلس الأمن القومى • أعفى من تلك المناصب الهامة فى خريف عام ١٩٣٦ م ، وتولى شئون البريد والتلغراف خلفا لـ« ريكوف » ، وكان هذا آخر محطة له فى سلم المناصب ، ومقدمة لاعتقاله ، ففى ابريل عام ١٩٣٧ م أعلن تنحيته من وزارة البريد ، وعندما نشر خبر صغير فى منتصف مايو ، يفيد رفع اسم « ياجودا » من على كوبرى السكة الحديد المقام بين « فولوتشايفسك » ، وبين « كومسومولسك » أصبح واضحا أن « ياجودا » وزير الداخلية ، وقائد المخابرات ورئيس مجلس الأمن القومى سابقا ، اقتيد الى المعتقل عن طريق وزارة البريد • ثم نراه الآن — فى مارس عام ١٩٣٨ م — مرة أخرى فى قفص الاتهام •

جلس مع هاتين الشخصيتين فى مقاعد المتهمين ثلاثة وزراء سابقين ، وثلاثة من أمهر ، وأشهر الأطباء السوفييت ، من بينهم البروفيسور « بليتنوف » الذى اتهم فى يونية عام ١٩٣٧ م بهتك عرض مواطنة سوفييتية وعضها فى ثدييها ، ولكن لم تذكر هذه الحادثة فى قائمة اتهامه ، بل وجه اليه أنه اشترك مع الأساتذة الأطباء : « ليفين » و « كازاكوف » ، بأمر من « ياجودا » ، فى قتل الشاعر « مكسيم جوركى » ، ورئيس المخابرات السابق « مينشينسكى » ، وعضو المكتب السياسى « كيروف » • كذلك تجاوزت الاتهامات الأخرى الموجهة اليهم الحدود الزمنية للقضية السابقة — قضية هتك عرض المواطنة السوفييتية المزعوم — حيث ادعوا عليهم — ليس فقط الأطباء ، بل جميع المتهمين — أنهم دبروا فى عام ١٩١٨ م مؤامرة ضد « لينين » ، وأنهم يتجسسون منذ أول العشرينات لحساب دول أجنبية ، وبالذات مع ألمانيا الهتلرية ، بغية اقتطاع منطقة أوكرانيا عن الاتحاد السوفييتى ، وضمها الى ألمانيا ،

ومع اليابان ، لتمكينها من أخذ المناطق الساحلية فى الشرق الأقصى • ولم تنته قائمة الاتهامات عند هذا الحد ، بل وجه اليهم أيضا أنهم حاولوا تحقيق أهداف معينة ، وهى تسليم المناطق المتاخمة لبولندا اليها ، وفصل الجمهوريات السوفييتية فى آسيا الوسطى — وهى جورجيا ، وأرمينية ، وأذربيجان — لتمكين بريطانيا منها ، وتفتيت أوصال الاتحاد السوفييتى ، ليعود الاقطاع والرأسمالية الى السيطرة على السلطة فيه مرة أخرى •

لم تكتف السلطات بهذه الاتهامات ، فوجهت اليهم أيضا تهمة التآمر لتخريب المصانع الحربية ، وتدبير فتنة بين قواد القطاعات العسكرية • ووجه الى « تشيرنوف » — وكان وزيرا للزراعة لفترة طويلة — أنه أفسد الجهاز الذى يتولى الاشراف على تربية الخيول ، مما سبب فى موت ٢٥٠٠٠ حصانا ، وأمر بحقن الخنازير ، فانتشرت فيها مرض الحمرة ، والطاعون • كذلك انخفض توريد البيض الى موسكو ، وساءت خدمة تجهيز الزبدة ، فوجد الناس فيها زجاجا ومسامير •

لم توجه الى هؤلاء البلشفيين القدامى ، ورفقاء « لينين » فى الكفاح تهمة الاتصال بالمخابرات الأجنبية التى تعمل لحساب اليابان فقط ، بل وجهت الى وزير الداخلية ، ورئيس مجلس الأمن القومى السابق تهمة الاتصال بألمانيا ، وبولندا ، واليابان أيضا ، والى وزير الخارجية السابق « روزينجولس » ، أنه كان منذ عام ١٩٢٣ م عميلا للمخابرات الألمانية ، ومنذ عام ١٩٢٦ م اتصل أيضا بالمخابرات الأمريكية • أما « راكوفسكى » رئيس حكومة أوكرانيا السابق فقد ذكر الادعاء أنه يعمل لحساب المخابرات الانجليزية منذ عام ١٩٢٤ م ، ولحساب المخابرات اليابانية منذ عام ١٩٣٤ م • كذلك اتهم وزير المالية السابق « جرينكو » بأنه يعمل لحساب المخابرات الألمانية ، و لبولندية معا منذ عام ١٩٣٢ م •

فرضت ضخامة الادعاء ، وكثرتها أسلوبا معينا على وسائل الاعلام ، فانطلقت الأبواق الدعائية تصفهم بأوصاف لم تسمع من قبل ، فلم يطلق « فيشينسكى » على المتهمين الأوصاف المعهودة فقط مثل : « عصابة الجواسيس المجرمين » ، بل سماهم أيضا : « فقس الأفاعى الملعون » ، و « أكوام متعفنة من فضلات الانسان » كذلك وصف « فيشينسكى » المتهم الرئيسى « بوخارين » — وكان « لينين » يسميه

« ابن الحزب البار » — بـ« الخنزير الملعون » ثم طالب فى آخر مقاله بأن يرمى هؤلاء بالرصاص ، كالكلاب المسعورة .

نظمت المظاهرات — كعادتهم ازاء أى حدث — ضد المتهمين ، وانعقدت المؤتمرات مطالبة برؤوسهم ، وازداد كل يوم اصدار البيانات — التى أعدت من قبل فى صيغ تكاد تكون متقاربة — التى تطالب باسم الجماهير بالاسراع باعدام أعداء الشعب . ونشرت الصحف صور المتظاهرين وهم يرفعون أيديهم ، مؤيدين الاجراءات التى اتخذتها السلطات ضد المتهمين .

أذيعت الأحكام رسميا فى ١٥ مارس ١٩٣٨ م فحكم على زعماء الحزب ، وقادة السلطة السابقين « كريستينسكى » و « ياجودا » و « بوخارين » و « جرينكو » و « ريكوف » و « تشيرنوف » و « روزينجولس » ، وعلى طبيبين هما « كاساكوف » و « ليفين » ، وبعض المتهمين الآخرين بالاعدام ، وعلى كل من رئيس حكومة أوكرانيا السابق « راكوفسكى » والبرفيسور « بليتنوف » بالسجن عشرين عاما .

لم يسر برنامج الحصص فى اليوم التالى كعادته ، بل سقط منه درسان ، تناولنا فى الزمن المخصص لهما دراسة القضية ، والأحكام التى صدرت فيها . بدأت المدرسة بافتتاح المناقشة ، واعتمدت فيما قالته — وهو من الأمور المسلم بها — على ما نشرته « برافدا » فى مقالها الافتتاحى ، ثم طلبت — وهو ما حدث فى جميع قطاعات الشعب فى هذا اليوم — أن نبدى رأينا فى هذه القضية .

كانت نتيجة المناقشة معروفة ، ومحددة قبل أن نبدأ فيها ، إذ تحدث التلاميذ واحدا بعد الآخر مستعملين أقوال الرسميين التى يرددها كل فرد لاظهار استنكاره مما ارتكبه هؤلاء « الجناة الخونة » . ثم وجه كل منهم فى كلمته شكره العميق لجهاز الأمن وأعضاء المحكمة على مجهودهم فى تنقية الشعب من هذه « القذارة » .

ثم قالت المدرسة :

هل يرغب أحد فى ابداء ملاحظات أخرى ؟ فصاح أحد التلاميذ من الصفوف الخلفية :

« نعم أريد أن أضيف الى هذا ، أننى لست موافقا على بعض أحكام هذه القضية » .

انكمش كل التلاميذ من الخوف ، والتفتوا الى التلميذ : ينظرون اليه نظرة اشفاق ، لأنهم اعتقدوا أنه قضى على حياته بهذه الكلمة وسأل معظم التلاميذ أنفسهم : هل أصابه جنون ؟ هل اختل عقله ، فصار لا يدرك خطورة ما يقول ؟

اضطربت المدرسة ، وبدا عليها الخوف أكثر منا ، لأنها مسئولة عما يحدث فى هذه المناقشة ، وحاولت بأسلوب خفى أن تمنع التلميذ من الكلام ، ولكنها تخلت عن هذه المحاولة ، ربما أدركت فى هذه اللحظة ، أنها لو منعته ، لوجه اليها اتهام التستر على « تلميذ من أعداء الشعب » .

واصل التلميذ حديثه :

« لقد تتبعت القضية بدقة من أولها ، وأوافق على أن يرمى بالرصاص هؤلاء الجواسيس المخربون أعداء الشعب ، ولكن بصراحة ، لا أفهم اطلاقا : لماذا لم يحكم على ثلاثةمن المتهمين بالاعدام ، بل حكم عليهم بالسجن . خمس عشرة سنة أو عشرين سنة . كان ينبغى أن يضرب بالرصاص كل من ... » .

تحدث التلميذ — وهو من الأذكياء ، وأحد المتفوقين فى الفصل — بحماس بالغ ، كما لو كان معتقدا من قلبه فى صدق أحداث هذه القضية .

تنفست المدرسة الصعداء ، فعاد اليها بعض الاطمئنان ، فهو وإن ابتعد فى اعتراضه عن منطقة الهلاك الا أنه — نسبيا — خطير أيضا . ثم لخصت ما دار فى المناقشة ، ولم تنس أن توجه الحديث الى هذا التلميذ المتحمس قائلة :

« لقد أشار الرفيق « فيشينسكى » الى أن مسئولية المتهمين فى القضية لم تكن متساوية ، ولهذا صدرت الأحكام على كل بحسب ما اقترف . كذلك ليس من حقنا أن نوجه النقد الى قرار المحكمة العليا فى الاتحاد السوفييتى التى أصدرت أحكامها بعد دراسة طويلة ، وفحص شامل ودقيق . وأحب أن أشير هنا الى أن الاختلاف فى الأحكام ، طبقا لاختلاف الاثم الذى ارتكبه المتهمون ، دليل على عدالة القضاء عندنا فى الاتحاد السوفييتى .

* * *

معاهدة هتلر ــ ستالين

لم تتوقف حركة الاعتقالات بانتهاء هذه القضية ــ كانت احدى ثلاث قضايا كبرى شغلت الرأى العام فى فترة التطهير من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٨ م ؛ فقد ازدادت مرة أخرى موجة الاعتقالات الجماعية فى خريف عام ١٩٣٨ م واستمرت حامية الوطيس بضعة أسابيع ؛ ثم نشر فى آخر هذا العام خبر صغير فى « برافدا » يعلن تنحية وزير الداخلية « يشوف » من منصبه وتعيين « بيريا » مكانه •

انتهت أفظع حركة ابادة ، اذ لم توجد مصلحة ؛ ولا هيئة حكومية ، لم يتعرض العاملون بها أكثر من مرة لحركة اعتقال واسعة النطاق • أرسل الملايين ــ ومن بينهم آلاف من المختصين فى الفروع المختلفة ، الذين بلغوا هذه الدرجة بشق الأنفس ــ الى معسكرات العمل فى سيبريا ، وكازاخستان ، أو فى الشرق الأقصى •

ارتفع عدد الضحايا بنوع خاص فى صفوف البلشفيين القدامى ، وقواد الحرب الأهلية ، فقد اعتقل كل رفقاء « لينين » تقريبا ، الذين قاموا معه بالثورة • كان أعضاء المكتب السياسى فى عهد « لينين » سبعة ؛ انتحر « تومسكى » فى نهاية عام ١٩٣٦ م ــ أى عند بداية حركة التطهير ــ ؛ وأعدم رميا بالرصاص فى سجن المخابرات العامة أثناء فترة حركة التطهير كــلا من « سينوفييف » و « كامينييف » و « ريكوف » • ثم اغتيل « تروتسكى » فى صيف عام ١٩٤٠ م فى منفاه بالمكسيك ؛ على يد أحد رجال المخابرات السوفييتية ؛ ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى « ستالين » •

وكذلك أعدمت المخابرات العامة كلا من « بوخارين » و « بياتاكوف » اللذين وصفهما « لينين » فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ فى وصيته المكتوبة بأنهما من أكثر شباب الجيل الجديد مهارة ، اذ يتمتعان بذكاء خارق •

كان أعضاء اللجنة المركزية العليا للحزب الشيوعى فى عام ١٩١٧ م واحدا وعشرين عضوا ، اختفى منهم فى حركة التطهير ستة عشرة ، اعتقلوا وأعدموا بالرصاص ، أما الباقون فقد مات ثلاثة منهم قبل التطهير موتا طبيعيا وامتد عمر اثنين فقط الى ما بعد التطهير وهما « ستالين » و « الكسندر كوللونتاى » •

لم يكن عدد الضحايا قليلا بين قواد الجيش ، فقد سقط ثلاثة

مارشالات — من الخمسة الذين كانوا آنذاك فى الجيش — ضحايا حركة التطهير وهم : « توخاتشفسكى » و « بلوشر » و « بيجوروف » • وأخذ معهم جنرالات الصف الأول المعروفين فى الجيش الأحمر • كذلك انتحر رئيس الادارة السياسية للجيش ، ووكيل وزارة الدفاع ، وهو « جرمانك » •

لم تنحصر موجة الاعتقالات فى أصحاب المناصب العليا فقط ، بل امتدت الى كل ركن من أركان الجمهوريات السوفييتية المختلفة ، وارتفع العدد ارتفاعا رهيبا فى المناطق الشرقية ، وفى منظمات الحزب ، وخاصة الأعضاء العاملين ، اذ اعتقل كل البلشفيين القدامى — ما عدا أفراد قليلين جدا — الذين ناضلوا ضد القيصرية قبل الثورة الشيوعية ، ودخلوا السجون آنذاك ، أو عاشوا فى المنفى • ألقت سلطات الحكم فى عهد القيصرية بهم فى السجون ، أو نفتهم الى خارج البلاد ، وهاهم الآن يعودون الى السجن مرة أخرى ، لكن سجانهم فى هذه المرة هم رفقاء النضال فى المرة السابقة •

اضطهد الشيوعيون الأجانب الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى اضطهادا عنيفا ، فقد اعتقل فى مدى شهور قليلة من قادة لأحزاب الشيوعية العالمية ، ما يزيد — فى عددهم — على ما اعتقلته جميع الحكومات الأخرى من مواطنيها الشيوعيين ، وتملأ كتابة أسماءهم فقط عشرات الصفحات •

أريد أن أذكر هنا بعض أسماء قادة الحزب الشيوعى الألمانى الذين راحوا ضحية حركة التطهير : « هيرمان شوبارت » و « أوجست كريتسبرج » و « فيللى ليون » و « هرمان ريميل » و « هوجو ابيرلاين » و « هانز كيبينبرجر » •

ولحق بهم فى مصيرهم : « فيرنر هيرش » رئيس تحرير مجلة : « العلم الأحمر » السابق ، و « فيللى كوسكا » الأمين الاول للجنة الرعاية الطبية الحمراء(١) فى ألمانيا ، و « كورت زاورلاند » رئيس تحرير مجلة التعبير الأحمر و « روتر أوفباو » كذلك اعتقل معهم مئات من الشيوعيين الألمان ، الذين اعتقدوا أنهم وجدوا فى الاتحاد السوفييتى ملجأ يحتمون فيه من اضطهاد النازية •

---

(١) أطلق الشيوعيون عليها هذا الاسم بدلا من الصليب الأحمر ، لأنهم لا يعترفون بالكنيسة ، وما يتصل بها • (م • شامة) •

توقفت حركة التطهير الدموية فجأة فى أواخر عام ١٩٣٨ م ، أو أوائل العام التالى ؛ كما بدأت فجأة قبل عامين • وأتذكر اليوم متعجبا ، كيف اتجه الناس فى موسكو — وأنا أيضا — بسرعة الى تناسى جميع صور الرعب ، التى كتمت أنفاسهم طول هذه المدة . فقد قاسينا كثيرا فى هذه الشهور المرعبة ، التى أماتت شعورنا ، وقضت على حواسنا البشرية • كذلك اختفت الاشاعات والمناقشات — حول ما يجب على المرء عمله حتى ينجو — بسرعة كما ظهرت قبل عامين • وان ظهرت بين الحين والآخر فى الأحاديث اشارات قليلة ذكرت بالتطهير • وبدت هذه الاشارات كما لو كان الانسان يتحدث عن حوادث تاريخية قديمة مضى عليها قرون طويلة •

قضينا صيف عام ١٩٣٩ م فى مدينة « يجسك » على بحر « أسوفش » ضيوفا على أكاديمية عسكرية كبرى ، وكنا نرى العسكريين وعلى رأسهم قلانس مكتوب عليها (W.M.A.U. imoni Stalon) ومعناه « مدرسة الأسطول الحربى للسلاح الجوى » وكانت مدرسة فخمة جدا فسكان المدينة — كلهم تقريبا — كانوا ضباط وجنود السلاح الجوى البحرى •

نزلنا فى بعض أبنية جميلة خارج المدينة ، لم تكن قريبة من الشاطىء ولهذا وضعت المدرسة البحرية أتوبيسا تحت تصرفنا لينقلنا يوميا الى الشاطىء صباحا ويعود بنا فى المساء الى مقر اقامتنا •

استمتعنا بهذه الرحلة استمتاعا أزال عنا ما خلفته أعوام التطهير السوداء ، فهدأت أعصابنا ، ولكن لم نتحرر التحرر الكامل من مشاكل الحيـاة •

كنا نعد أنفسنا فى أيام الرحلة لدخول مدرسة منظمة الشباب الشيوعى ، وذلك بعقد اجتماع كل يومين بعد الظهر مع المرشد السياسى « أجور سبيراسكى » لتثقيفنا سياسيا • وليس من الأمور الصعبة معرفة الموضوعات التى تناولها معنا ، اذ لم تكن سوى تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، فقد نشر فيه كتاب فى خريف عام ١٩٣٨ م ، درسنا معه هذا الكتاب صفحة صفحة ، وكانت المرة الثانية لى ، فقد قرأته قبل ذلك • (قرر علينا فيما بعد ، فدرسته للمرة الثالثة) •

وجهت الينا الدعوة فى منتصف أغسطس لحضور حفلة فى قصر

الثقافة الكبير التابع للمدرسة البحرية ، ودارت المحاضرة التى ألقيت فى هذه الليلة حول الوضع العالمى — كما كانت العادة آنذاك — فاشتملت على هجوم عنيف ضد الفاشية ، وألمانيا الهتلرية وكان مما قال المحاضر حرفيا :

« أيها الرفيقات والرفقاء ! يوجد معنا فى هذه الصالة ضيوف أجانب هم أبناء المناهضين للفاشية من الألمانيين والنمسويين : الذين كافحوا ضد ديكتاتورية « هتلر » الطاغية » • التفت الحاضرون الينا ، وأصبحنا منذ ذلك الوقت أعلاما فى هذه المدينة • كنا سعداء ، وكانت تلك الفترة حلما جميلا فى حياتنا ؛ فمضيفوننا يزوروننا ، ويسألون عما نحتاج اليه ، وعما اذا كنا مسرورين بهذه الاقامة • ذكرتنا هذه الحفاوة البالغة بالأوقات السعيدة التى قضيناها فى حفاوة الهيئات السوفييتية فى بداية اقامتنا فى الاتحاد السوفييتى •

مرت ثلاثة أيام على هذا الاحتفال يوم استدعى المشرف السياسى الى الذهاب الى المدينة — ظهرا — لأنه مطلوب على التليفون فقال لنا :

« سافروا بهدوء الى الشاطىء ، واستمتعوا بالسباحة ، وسأعود اليكم فى المساء ، فالمسألة لا تعدو أنى مطلوب على التليفون •

فسألناه : ماذا حدث ؟

— لا أدرى ! لا أعتقد أنه شىء مهم •

ذهبنا للسباحة ، يحدونا النشاط ، ويملؤنا السرور •

ولم يمض نصف ساعة حين عاد الينا المشرف السياسى مصطربا ونادى بصوت عال :

— أخبار مهمة جدا ، لقد أحضرت معى الملحق الخاص للجريدة الصباحية •

سألناه بصوت واحد : ماذا حدث ؟

— لقد عقدنا معاهدة عدم اعتداء مع ألمانيا •

نظرنا اليه بأفواه فاغرة ، فقد كنا نتوقع كل شىء الا هذا ! تابعنا — قبل ذلك — الصحافة ، وما تقوله وسائل الاعلام الأخرى باهتمام شديد ، وكنا متأكدين أن المحادثات مع الغرب — على الرغم من تعثرها وتعقدها — ستؤدى الى عقد تحالف مع انجلترا وفرنسا ضد المعتدين الفاشيين •

قرأ المشرف السياسى أمامنا — بصوت عال ، يبدو على نغماته الرضا ، بما توصلت اليه حكومته ! — نصوص المعاهدة بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا الهتلرية • فاعتقدنا بعد سماع المقدمة أن الأمر لا يعدو التزام الطرفين بعدم الاعتداء على بعضهما ، ثم واصل « اجور » قراءته ، فأصابنا الذهول حين قرأ :

« تستمر حكومتا الطرفين المتعاقدين فى الاتصال ببعضهما ، لتبادل المعلومات حول مصالحهما المشتركة ، ويؤكد كل من الطرفين المتعاقدين أنه لن يشترك فى حلف يكون موجها — بطريق مباشر أو غير مباشر — ضد الطرف الآخر » •

لم يكن هذا — بالتأكيد — معاهدة عدم اعتداء فقط ، بل تغييرا جذريا لسياسة الاتحاد السوفييتى الخارجية برمتها ! تبادل معلومات حول « المصالح المشتركة » مع نظام هتلر ؟ عدم المشاركة فى أى حلف يكون موجها ضد هتلر ؟ لن يكون هذا سوى رفض نهائى لكل صور المقاومة للاعتداء الفاشستى !!

جلسنا — كمالو كنا قد أصابتنا صاعقة — صامتين ، لا نستطيع حراكا ، ثم قطع الصمت أصغر التلاميذ وهو « اجون ديرن باخر » فقال بنبرة حزينة :

« وا أسفاه ! لن يسمح لنا بمشاهدة فيلم شابلن « الدكتاتور » •

فهم هذا التلميذ الصغير الظروف فهما دقيقا ، اذ سرعان ما أثرت هذه المعاهدة — كما رأينا فى الأيام التالية — على السياسة الداخلية •

لم يعقد اجتماع لاجراء مناقشة حول هذا الموضوع ، لأنه لم يوجد أحد — حتى المشرف السياسي — يستطيع أن يعطى تفسيرا لهذه المعاهدة •

حاول المشرف السياسى تهدئتنا فقال :

« ان من المؤكد أن تنشر الصحافة غدا تفسيرا مفصلا وواضحا ومع ذلك فسوف أسافر غدا الى مقر الحزب فى « جيسك » ، ثم أبلغكم بتقرير مفصل ، ثم نتناقش فى مساء الغد بالتفصيل فى كل صغيرة وكبيرة •

هذا اذا لم يحدث شىء آخر يبدد خططنا المرسومة !!!

* * *

حل بيت الطلبة

أيقظنا المشرف السياسى فى الصباح الباكر لليوم التالى لعقد المعاهدة وقال :

ـ لقد وصلت توا برقية لاسلكية من موسكو ؛ تطلب عودتنا فورا

ـ حالا ؟ اليوم ؟

ـ نعم ، لقد أخبرت بهذا بعد أن استفسرت بوضوح ، وسنتحرك بعد ساعتين الى موسكو عن طريق « رستوف » .

استولى الحزن علينا فى القطار ، ولعبت بأفكارنا الهواجس ، ودارت فى أذهاننا أسئلة لم تجد اجابة : ما معنى هذه العودة الفجائية ؟ على أى نحو سوف تشكل حياتنا بعد أن عقد الاتحاد السوفييتى معاهدة مع ألمانيا الهتلرية ؟

انتظرنا بفارغ الصبر وصولنا الى موسكو لنقف على حقيقة هذا التغيير ، وآثار ذلك بالنسبة لنا ؛ ولم نحتج الى الانتظار طويلا ، فقد قابلنا بعض زملائنا الذين قضوا اجازاتهم فى مكان آخر وعادوا بسرعة قبلنا ، على محطة السكة الحديد وصاحوا فى وجوهنا : لقد حل مسكننا !!

لم يوجد خبر آخر هزنى وأظلم الدنيا أمام عينى مثل هذا الخبر . مسكننا ؟ لقد كان كل شىء بالنسبة لنا : فهو مأوانا ، وحياتنا وحامينا وصديقنا ! والآن ! يختفى بين يوم وليلة !

وقفنا فى مفترق الطرق ، لا نستطيع أن نتصور ما يخبئه المستقبل لنـا !

ـ ماذا يفعلون بنا ؟

ـ لا نعرف شيئا حتى الآن ، سوف يتقرر ذلك بعد الظهر .

سافرنا ـ بقلوب منقبضة ـ من المحطة الى بيت الطلبة فى المبنى رقم ١٢ فى حارة « كلاشنى » ، فرأينا أساسه مبعثرا ، كما لو كان مخلفات معركة ، انتهت قبل ثوان ، وعمال نقل الأثاث والنقاشين وعمال السباكة يتنقلون هنا وهناك ، هذا يحزم الأمتعة وآخر يصلح هذه أو تلك . أما أمتعتنا الشخصية فقد جمعت ، وألقيت فى احدى الصالات ،

ولاحظنا أن بعض زملائنا قد حزم أمتعته ، واستعد للرحيل ، ولكنهم لا يعرفون الى أين ؟ أما الآخرون فمشوا من حجرة الى أخرى ، فاقدين الوعى ، يرزحون تحت عبء ألقى عليهم من حيث لا يدرون ، ولا يعرفون طريقا للخلاص منه •

سوف يعقد اجتماع ! أين ، ومتى ؟ لا أحد يعرف مصيرنا بالضبط ! لم يجب المشرفون على استفساراتنا الا بهز الأكتاف ثم يقولون :

« لا نعرف شيئا ، فنحن وأنتم سواء فى الجهل بما سيتخذ بالنسبة لكم ، وعلى كل فالناظر فى مقابلة الآن مع المسئولين » •

وعندما عاد الناظر نادوا جميع التلاميذ :

« تعالوا الى الصالة الكبرى ، سيبدأ الاجتماع بعد لحظات » •

اختلف هذا الاجتماع عن الاجتماعات السابقة ، اذ اختفت منه جميع مظاهر التكريم ، والتبجيل ، فجلسنا على صناديق وأكياس ، وبعضنا وقف مستندا على الحائط •

بدأ الاجتماع — كما هو العادة — بكلمة سياسية ، ثم « شرح » لنا الناظر المعاهدة ، فأشار الى أن القوى الغربية رفضت المحادثات على أساس المساواة بين الأطراف كلها ، لأنهم أرادوا استغلال الاتحاد السوفييتى لخدمة مصالح الاستعمار الغربى ، وفهم « ستالين » العظيم هذه اللعبة ، فقرر معاهدة مع ألمانيا تتيح للاتحاد السوفييتى أن يعيش فى سلام ويواصل التشييد والبناء •

ثم جاء دور الكلام عن بيت الطلبة فقال : « ونشأ عن السياسة الخارجية الجديدة ادخال بعض التعديلات فى الأنظمة » •

انطوى مسح بيت الطلبة ، من الوجود بهذه السرعة تحت هذا التعبير « بعض التعديلات فى الأنظمة » • ثم بين الاتجاهات الجديدة باختصار ، وبعبارات تنم عن القسوة ، والشعور باللامبالاة ، فلم يبذل أدنى جهد لتهيئتنا من الناحية النفسية ، لتقبل التغييرات الجديدة ، فأحسست تلقائيا بأننا « مسحنا » من الوجود •

ثم واصل حديثه :

سيرسل التلاميذ الذين لم يتجاوزوا الفرقة السابعة اليوم بعد الظهر الى بيت الطلبة الروسى المعروف باسم « سيارتاك » أما التلاميذ

الأكبر سنا فيمكنهم الذهاب الى احدى المؤسسات التى ترعى شئون الايواء (الملاجىء) ؛ ومن يريد منهم مواصلة التعليم حتى الثانوية العامة يرسلون مع الصغار الى بيوت يعيشون فيها مع التلاميذ الروس ، وبجب عليهم أن يخضعوا هناك للتعليمات التى تسرى على غيرهم من تلاميذ الاتحاد السوفييتى .

انتهت كل التعليمات فى مدى نصف ساعة ؛ ثم أرسل فى نفس اليوم أربعون تلميذا الى بيت الطلبة « سبارتاك » . لم يبدو من الناحية الظاهرية اختلاف كبير بينه وبين بيتنا القديم ؛ فالمبنى جميل وان كان أصغر من بيتنا السابق .

دخلنا المنزل الجديد بخطى متباطئة ؛ ثم سمعنا صوتا ينادى :

« ادخلوا جميعا بسرعة الى الصالة » . بدت اللهجة شديدة ، لم نتعودها ؛ فوقفنا مذهولين فى الصالة ، ثم دخل رجل قارع الطول ذو شعر أسود ، ووجه صارم ؛ فقال بلهجة أشد من سابقتها :

« اصطفوا فى صف واحد » فأطعنا الأمر ونحن خانعون ، ثم نزلت علينا الأوامر ، كما لو كانت هراوات تسقط بشدة على أكتافنا :

« لا يجوز لأحد مغادرة المنزل الا بتصريح من المشرف . ويجب أن تعمل الواجبات المدرسية تحت رعاية المشرف ، كما يجب عليكم أن تلتزموا بتنفيذ قواعد وأنظمة المنزل ؛ فالتدخين ممنوع منعا باتا ، حتى فى فناء المنزل ، وينبغى على المدخنين أن يسلموا فورا ما معهم من سجائر ، ومن لا يفعل الآن ؛ سينزل به أقصى العقوبات فيما بعد » .

كانت أعمارنا تتراوح بين سبعة عشر وتسعة عشر عاما ؛ ويملك بعضنا — وأنا منهم — علب سجاير فى جيبه ؛ فقد كان مسموحا للكبار منا فى مسكننا السابق بالتدخين .

ثم أردف مهددا :

« أدعوكم مرة أخرى ؛ سلموا السجاير التى معكم طوعا ؛ فمن لم يفعل هذا الآن ، ينتظر العقاب الصارم فيما بعد » .

تقدم أحدنا فسلم ما معه من السجاير ؛ ثم تبعه الآخرون مكرهين واحدا بعد الآخر .

ثم أرسلنا الى الأماكن التى سوف ننام فيها .. انزعجنا عندما

رأينا صالة النوم : فقد صفت فيها سراير بدائية حقيرة ، لا يفصلها عن بعضها الا مسافة ضيقة جدا ؛ وهنا بان لنا أن الاختلاف بين هذا المنزل وبين بيتنا السابق كبير جدا • وقلت لنفسي — لو اطلعت على هذه الأفكار المخابرات العامة لاعتبرتها مناوئة للسلطة :

« من المسلم به أن الوفود الأجنبية لا تأتى هنا . فزيارة مثل هذا البيت لا توضع فى برنامجهم » •

حان موعد العشاء ؛ وليس من الضرورى القول بأنه كان سيئا !!

لم يضايقنى التغيير فيما يتعلق بالماديات ؛ بقدر ما ضايقنى الحجر على حريتى الشخصية •• بأن أخضع خضوعا كاملا لهذه الأنظمة فلا يسمح لى بأن أتجول فترة قصيرة للترويح عن النفس الا بتصريح خاص !! وشاركنى فى هذا كل التلاميذ ؛ لدرجة أنهم كادوا يذرفون الدموع •

قال أحدهم شاكيا :

« ما أردأ هذا المنزل ؛ فهو يختلف اختلافا كليا عن بيتنا السابق ، لم أكن أتصور اطلاقا أن الفرق بين بيتنا وبين بيوت الطلبة الروس كبيرا الى هذا الحد » •

كتبنا فى مذكراتنا :

« آخر أغسطس ١٩٣٩م ؛ استمر بيت الطلبة رقم ٦ — وكان مأوى أطفال مناضلى رابطة الدفاع النمسوية : وأطفال الألمانيين اللاجئين الى الاتحاد السوفييتى — خمسة أعوام تقريبا — قضيت فيه منها ثلاث سنوات — ؛ تعرفنا فى هذه المدة على الاتحاد السوفييتى ، ولكن من نظرة جانبية لشباب يافع ، عاش فى مسكن مجهز بأدوات الراحة ، لم يشعر بمتاعب الحياة اليومية ، فاق مستواه المعيشى مستوى الطبقة المتوسطة فى الاتحاد السوفييتى ، فنحن وان كنا عاصرنا سنوات التطهير انقاسية ؛ الا أننا لم نكتو بنارها ؛ مثل أولئك الذين كانوا يعملون فى مؤسسات ؛ أو تنظيمات أخرى •

انتهت الآن كل هذه الامتيازات ؛ اذ بدلت معاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا الهتلرية أسلوب حياتنا ؛ فألغى بيت الطلبة رقم ٦ ؛ وطردنا منه ، وتحولت حياتنا بين يوم وليلة الى حياة انسان سوفييتى عادى •

obeikandl.com

ان من يرى حالتنا الآن ، لا يمكن أن يصدق أننا قبل اسبوعين كنا نستعمل أتوبيسا خاصا تابعا للأكاديمية العسكرية فى الذهاب الى الشاطىء والعودة منه ، وأن مئات من الضباط أقاموا لنا حفلا كبيرا ، امتلأ بالعواطف ، والمشاعر عبروا بها عن تقديرهم لآبائنا الذين كافحوا فى سبيل الاشتراكية .

لعل هذه الأحداث تبين للقارىء العربى أن الأحداث السياسية تشغل حيزا كبيرا فى مجال الحياة فى الاتحاد السوفييتى — وبالتالى ستأخذ صفحات هذا الكتاب — ، وتوضح له مدى تأثيرها على حياة الفرد الخاصة ، وكيف يتوقع المرء خلاف هذا فى بلد تقتحم فيه الأحداث السياسية مجال الحياة الخاصة مباشرة ؟ ، فقد قاسيت أكبر حركة اعتقالات وأنا فى سن الرابعة عشرة ، كانت أمى احدى ضحاياها .

ولما بلغت الخامسة عشرة شاهدت اعتقال المدرسين والمشرفين ، وقرأت أخبار القضايا السياسية ، والهجوم العنيف على شخصيات ، كانت الصحافة تتحدث عنهم قبل بضعة أشهر على أنهم نماذج وأمثلة ينبغى الاقتداء بها .

وفى سن السادسة عشرة رأيت بعينى ، كيف قبض رجال المخابرات العامة على تلميذ من زملائى فى بيت الطلبة ، واقتادوه من عنبر النوم .

ثم فى سن السابعة عشرة والنصف تبين لى أن مصير بيت الطلبة الذى كان مأوانا الوحيد ، تحكمت فيه معاهدة — نشأت عن تغيير فى اتجاه السياسة الخارجية — مع قوى عظمى أخرى .